غربة الساق

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك :978-9931-06-237-0
الإيداع القانوني : أكتوبر 2021.

صالح عزوز

غربة الساق

رواية

جلست تداعب عصفورها الصغير في الشرفة، وقد غطت ألحانه ضوضاء السيارات، فلمحت شابا يراقبها من بعيد، لم تعره اهتمامها، وتعمدت عدم النظر إليه، وتناسته بخطابها إلى سجينها هذا، وقد ألف البقاء.. تعلم أنه لا يمكن لرجل أن يهتم لأمرها. لذا كانت كلما رأت من يغازلها، أو يحوّل نظره إليها، تذكرت سخرية زميلاتها في الدراسة، من طريقة مشيها وحركاتها غير المتناسقة كأنها ثملة لا تستطيع الوقوف معتدلة. انسحبت من عالم الغزل بكل أنواعه، ولا تقرؤه حتى في الكتب. كانت تشعر بالغيرة، لأن هذا العالم لم ينصفها، فقد أهدى إلى غيرها ما لم يهده إليها. تقاسم في الكثير من الأحيان، حديثها وبغضها لهذا الوجود الظالم والمجحف في اعتقادها، مع جارتها، التي تتخبط في ظلام بئر العزوبية، تنتظر من يسحبها منه إلى الأعلى، لترى ضوء النهار.. تعتبرها شريكتها في عزاء هذه الحياة، لم تكن تعرفها منذ مدة طويلة، لكن، عرفتها بعد تنقلها إلى هذا الحي الجديد. لذا، فهي لا تملك صديقات كثيرات.. فقط التحية الصباحية والمسائية من الشرفات، ليس حبا أو مودة، لكنه فضول بعض النسوة، من أجل معرفة الجيران الجدد. وهذا، بإطلاق الدعابات للفت الانتباه، وخلق جو من المرح في الحي، يتحول مع الوقت إلى صداقة نسوية، تنتهي أغلبها بالمعايرة من الشرفات.

حين أكملت إطعام هذا السجين الصغير، الذي لم يشكها سجنه، لكنها تشكوه همها كل يوم، أغلقت الباب ورجعت إلى غرفتها.. غير أن شيئا في صدرها، بقي يداعب أوتار فضولها، فمن ذلك الذي يراقبها عن بعد؟ لم يحصل أن تأملها رجل غريب بهذا الاهتمام من قبل، سواء لما كانت في الدشرة، وحين تحولت إلى هذه القرية الصغيرة، كان الأمر كذلك، انقطعت عن الدراسة منذ سنوات، لأن والدها كان لا يرى في دراسة الفتاة جدوى.. فالمهم، أن تتعلم كتابة اسمها والإمضاء حين تذهب لعقد قرانها، هي العبارة التي حفظتها عن أبيها منذ صغرها. لذا، حين وصلت إلى الطور المتوسط، أغلق الباب عليها في بيتها، ومنعها من الدراسة، بالرغم من كونها متفوقة في دراستها، تدخّلت جدتها في عدة مرات من أجل عدم فصلها من الدراسة، إلا أن والدها قد فصل في الأمر منذ مدة. ولكي يتجنب الحديث في موضوعها، كان يساير حديثها، حتى انتصف الموسم الدراسي، وتأكدت من طلاقها مع دراستها إلى الأبد. كانت تقص حكايتها على جارتها وردية، التي كانت تسمعها في كل مرة بنفس الاهتمام، دون ملل. تحبها، وترى فيها أختا لم تلدها أمها. في المقابل، كانت هي كذلك، تواسيها في عدم الزواج وبقائها عزباء حتى سن متقدمة، في مجتمع كلما زادت سن البنت بسنة ضاق البيت عليها، كما يضيق حبل المشنقة على الرقبة عند الشنق. كانت تهمس إليها بأن الزواج لا يليق بالجميلات، بل يليق فقط بالمتعجرفات. وتخبرها بأن أغلب الرجال الذين يتزوجونهن أغبياء كذلك، لأنهم

يتركون الجميلات مثلها، ويلهثون وراء من لا تستحق الاهتمام.. كانت وردية تضحك ضحكا مسموعا، حين تسمع هذا الكلام، ويكون له وقع كبير على قلبها.. تشعر بالسعادة حتى إن قهقهات ضحكاتها، تصل في بعض الأحيان إلى الجهة الأخرى من الشارع، وكأنها تعبر عن انتقامها من الرجال، الذين يغضون البصر عن الجميلات مثلها، ويذهبون للبحث عن غيرها.. "الشح.. الشح فيهم"، ترددها مرات ومرات، وهي تعانق أقرب صديقة إليها.

جمعتهما الحياة بحزن مختلف، كلاهما تحمل ضررا مخفيا في صدرها، لا يمكن أن تبوح به، إلا لمن تثق فيه. لهذا، تكون الصداقة في بعض الأحيان بمثابة متنفس ودعم لنا. فبدل الهرولة إلى مكان في الخلاء، والنداء بصوت مرتفع، تعبيرا عن عدم رضانا بحالنا أو لوجعنا، نجلس إلى صديق نفضفض معه في سكون وسرية عما يؤلمنا.

***

كان يجلس تحت شجرة بلوط، يداعب النمل، الذي يصنع خيطا أسود، ذهابا وإيابا، بحثا عن بقايا الأكل. فغالبا ما كان يتناول غداءه تحت هذه الشجرة، التي عمرت طويلا، وهي اليوم تقف كسد منيع على واجهة البيت، حتى جاءه ابنه محمد مسرعا يطلب منه الدخول إلى البيت، لأن والدته سقطت على الأرض. التفت إليه ثم ابتسم:

- واش بيها.. كل يوم تطيح وتتقيا؟

- بابا، هذي المرة طاحت على وجهها وانجرحت..

- ادخل راني جاي "ينعل يماك"..

هرول الولد إلى البيت، وبقايا الدموع مرتسمة على خديه، أتى من بعده والده، بعد زمن من طلبه، لا يهتم كثيرا بزوجته، بل يمقتها، خاصة من اليوم الذي تنازلت عن إرثها إلى إخوتها، بعدما مات والدها. من تلك اللحظة، انقلبت معاملته لها، حتى إنه أصبح لا يكسوها إلا في الأعياد، وهي المناسبة الوحيدة، التي كان يشتري لها فيها قماشا من الصنف الرديء، فتقوم هي بتقطيعه على مقاسها، وتخيط لنفسها فستانا أو شيئا تلبسه.

دخل إلى البيت، وهو ينظر إليها نظرة اشمئزاز. وجد الولد يقف عندها وهو يبكي. أمره بالذهاب للبحث عن جدته. فتحرك الولد مسرعا، فتلقفه من ثيابه الرثة:

- وشبيك تبكي.. وصفعه صفعة قوية.

- وين راهم خاوتك لي عطيتيلهم الورث، علاش مايجوش يدوك للطبيب؟

- لم تعره أي اهتمام، فالوجع الذي يقطع أحشاءها في هذه اللحظة، أكثر من وجع كلامه. رجع الولد والجدة معه، كانت لا تزال قادرة على السير والكلام، والرؤية. أمرت ولدها بالخروج، لأنه "شغل النسا". نظر إليها مطولا ثم انصرف.

بعد لحظات من التحقيق النسوي، الذي تتقنه العجائز في الدشرة، طلبت من "محمد" الذهاب إلى بيت الحاجة "قرمية"

وطلبها على عجل. وأوصته بأن تحضر معها "الطارفة". فانصرف الولد مسرعا. شاهده والده يتجه إلى بيت الحاجة "قرمية"، فعرف السبب. وقبل مجيء ولده دخل إلى والدته في البيت، وطلب منها ما تريده، فزجرته وأمرته بالخروج، حتى تطلبه.

انقضت ساعات طوال من مصارعة الألم، الذي ترجم في آهات طويلة، تكاد تسحب القرميد من فوق البيت، تتقلب بين أيدي العجوزين، اللتين لم يكن يهمهما ألم "فاطمة" وصياحها، بقدر أهمية ما سيخرج من بطنها.

بقي "علي" عند مدخل الباب ينتظر. وبعد مدة، خرجت إليه والدته، وهي تنظر إليه نظرة تعلوها سحابة حزن. كان يعرف تلك النظرة، وهي تحرك رأسها يمينا وشمالا، وتردد: " الحمد لله على كل حال". أدرك حينها أن زوجته أهدته بنتا، وهذا أخوف ما كان يخافه. ضرب على رأسه كمن أصابه مس، وبقي يردد: "لا حول ولا قوة إلا بالله". دخل في هستيريا من الغضب كعادته، وأقسم ألا يقيم وليمة على هذه البنت، غير أن والدته نهرته بشدة، وأمرته بتتبع القطيع إلى الغابة، وجلب أكبر كبش، وذبحه، ودعوة كل أهل الدشرة، من أجل العشاء. ذهب على مضض، وهو يشتم، ويسب ويضرب الحجر من أمامه، مثل طفل صغير.

بعد الوليمة، دخل في غيبوبة سكوت،كأنه أصبح فجأة أبكم، لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد، يدخل مسرعا إلى زوجته، التي ما زالت تعتصر من شدة الألم كالمجنون، ويسألها عن سبب اختيارها لبنت

وليس لولد.. كانت لا ترد عليه، فقط تدعو الله أن يهديه وتستغفر استغفارا مسموعا، يحمل بعضه بعدها وينصرف.

بقي على هذه الحالة، لعدة أسابيع، بل زادت ظلمة وجهه وكلما التقى أحدا من جيرانه أو أصدقائه يشتكي إليهم سوء طالعه، ويصر على أنه بعد كل مولد فتاة، سوف يحل بهذا البيت الدمار أو موت أحد من أهله، ولم يخفِ أنه لو خير في هذا الأمر سوف يرسل الموت على زوجته. انقسم الناس في حاله، بين من يدعو له بالهداية، وبين من يطلب منه تقبل هذا "العار"، حتى وإن لم يقولوها صراحة، إلا أن حديثهم إليه يظهر فيه نوع من التحيز إلى جنس الذكر.

زال الألم وتقدمت الحياة، أما غيظ علي فلم يتغير، بل تعدى إلى كون زوجته أرادت هذه الفتاة، انتقاما منه على أفعاله معها كمن أصابه هذيان، وأصبح لا يعرف ما يقول، وأصبح حديث الدشرة، يضرب به المثل في كرهه الجنس اللطيف، الذي يعتقد أنه عقاب من الرب، ومن أراده الله وأحبه لن يورثه البنات.. قناعة زادت ترسخا حينما كان يضرب المثل بوالده- رحمه الله-، فلم يهب له الله الإناث بل الذكور فقط. وهذا دليل حب الله له، حتى إنه لما مات نزل المطر، وبكت السماء حزنا عليه، ولم يستطع أهل الدشرة دفنه بعد مطر غزير، ارتوى منه قبره. وهذا دليل على تكريم الله لبعض خلائقه.

***

بقي وجهه مسودا، كأنه قطعة من الليل، أو يحمل الأحزان كلها أو كمن لبس قناع المآسي. فقط، لأنه رزق بنتا. كان يحوم حولها لكنه لا يكلمها، بل يلعنهما طول الوقت. لم يتحدث إليها يوما مباشرة أو داعبها، فقط كلما نظر إليها لعنها، ولعن من أنجبتها، ثم انصرف. بقي على هذا الحال لمدة طويلة، يحمل ثقلا أهداه إليه القدر في اعتقاده. هو من عالم، تعتبر الفتاة فيه بمثابة عار لأهلها، يعيشون في زمن الجاهلية الأولى، لكن في ذلك الزمان كانت الفتاة توأد، أما اليوم، فلا يمكن لهم وأدها، وهي تنبض بالحياة، حتى وإن أقسم الكثير من الرجال على دفنها في البيت ولن ترى عالمها الخارجي، ولن تخرج إلا إلى الوادي لغسل الأفرشة والثياب، يود الكثير منهم لو أنه يغرق وجهها كل صباح في روث البهائم، أو الوحل، حتى لا تجلب إليه عيون الناس، فلا يريدون من يغازلها، ولو من بعيد. الشرف في هذا المكان لا يقاس بفقدان العذرية، كما يعتقد الكثير من الناس، فهو أدق من هذا بكثير كشف الركبة مس بالشرف، وكشف الرقبة كذلك.. أما نظرها إلى الغريب، فهو خطيئة، تبيت من أجلها معلقة من عرقوبها.

يعتقد الكثير منهم أنه حينما يرزق بفتاة، فقد أصبح محل سخرية بين الناس. الجنس اللطيف عندهم حتى وإن كان خالقه هو من خلق الذكر، يعتبر خطيئة. اعتاد الناس على هذا بحكم العرف والطبيعة، لا لشيء آخر، لكنهم يحملون همها حتى رحيلها أو رحيلهم من هذه الحياة. وتبقى تعاني التهميش والنظرة السوداوية

من يوم قطع حبلها السري إلى اليوم الذي تصبح فيه فتاة تخطو في هذه الحياة. وهنا يزيد همها. لا يعتبرونها من فصيلة البهائم، لكنها هي كذلك بحكم معاملتهم لها، أليست من تضرب بعصا الخيزران لساعات طويلة حتى تتورم بشرتها ويتغير لونها، هي من سلاسة البهائم؟ وحتى البهائم ترحم في مقامها. أليست من تخرج كل صباح تجر قدميها إلى الغابة، تقطع الأغصان وتحمل الحطب، وترعى الغنم، وتعود بعد غروب الشمس وقد أنهكها التعب، وحين تصل ترمي ما بيدها لتكمل شغل بيتها، ولا تأوي إلى فراشها إلا على البصق والكلام الموجع من زوجها، وتنام على غضب، لكن لا يحق لها قول "آه"، لأن آهات المرأة في هذا المكان خطيئة وتمرد يجب استئصاله من صدرها، كما يستأصل سرطان الثدي.

عاشت ربيعة في هذا الجو، الذي يسوده الكره والضغينة، حتى من أناس لا يعرفونها، فقط لأنها تحمل لقب أنثى، ولا ذنب لها في اختيار جنسها. كبرت على هذه الحال، وهي تصارع قلب أباها الذي نفر منها بعد أول صيحة لها في هذا العالم. كانت تحبو وراءه وتجذبه من قندورته المتسخة، لكنه لا يبالي، كان يدفعها برجله ولا ينظر إليها، كما تدفع البهيمة صغارها، خوفا من أن تدوسهم لكن براءتها تبقى معلقة به، وهي تبتسم، حتى ينصرف من أمامها.

***

تخرج صباحا تحملها معها على ظهرها، تربطها بقطعة قماش سوداء قديمه، أهدتها إليها أمها، التي ماتت قبل أبيها بسنوات، هو تذكار لها من أمها، تشم رائحتها في الجنة من خلالها، هذا ما كانت تحدث به جاراتها كلما التقين بالقرب من "العين"، لجلب الماء. تنصرف من البيت قبل زوجها، تتركه يغط في النوم، وحين يفيق يلحق بها وقد مالت الشمس إلى المغيب، يقضي اليوم كله في المجادلات التي لا تنتهي مع رجال الدشرة، الذين يرسلون زوجاتهم إلى الغابة وراء الأغنام، أما هم فيحملون أنفسهم إلى الجبل، من أجل الصيد، وتتبع الأبقار التي يتركونها طوال أيام الصيف بحثا عن الكلإ.

في فصل الصيف، يكون الجو سخنا، تلطفه أشجار الغابة وحين تقترب الشمس من المغيب، تهبط نسمات باردة، تزيد برودتها عند الصباح الباكر. أما في فصل الشتاء، فالعيش في هذا المكان يصبح قاسيا، حين تكسو الثلوج القمم، ويصبح الجو باردا والصقيع يسد على أبواب البيوت، لكن "فاطمة" تحمل المجرفة وتفتح الطريق إلى مكان مبيت الأغنام والبقر، وتأتي بالحطب من أجل التدفئة، تلبس الحذاء البلاستكي، مع ثلاثة أزواج من الجوارب، لكي لا تتجمد رجلاها بعد رجوعها. كان الشتاء يشتد بردا كل يوم، والصقيع لا يكاد ينقطع، وحين تظهر الشمس بعد طول غياب، يهم الثلج بالرحيل، يذوب وتمتلئ الوديان منه ولا تبقى إلا القمم مكسوة به، في بعض الأحيان إلى شهور أخرى.

...نادى مناد في وقت مبكر قبل طلوع الشمس، في صبيحة يوم خميس، أن "الطاهر"، خرج للبحث عن الأبقار هو وولداه ولما يعودوا إلى حد الساعة، فما كان من أهل الدشرة إلا الخروج بحثا عنهم. اجتمعت النسوة في هذه الصبيحة الباردة، بمقربة من العين التي تجمد ماؤها من شدة البرد.. كلٌّ تدلي بدلوها وحكايتها التي كانت أغلبها نذير شؤم، فلم يحدث أن اختفى شخص في هذه الدشرة في الجبل وعاد سالما، خاصة في أيام الثلج والأيام الممطرة التي تجرف كل شيء تجده أمامها حتى البشر. وبينما هن يتبادلن الحديث والتأويلات حتى من العدم، حتى سمعن إحداهن تنادي من بعيد:

- أجريو ليا.. أجريو ليا.. "فاطمة" داها الواد. هرولت النسوة في كل الاتجاهات، وارتفع العويل.

كانت فاطمة على مرأى منهن، تصارع المياه الباردة والجليد الذي يحاصرها من كل مكان، لم تستطع الإمساك بالنباتات، التي تجمدت من شدة البرد، فأدمت كفيها وحاصرها العجز، لكنها بقيت متماسكة، وما كان يهمها هو إبقاء بنتها على مرتفع من الماء المتجمد وهي لا تزال لحمة طرية كما يقال، في الوقت الذي كانت تصارع موتا محتوما، انفصل رباط ابنتها من حولها، وكادت البنت أن تسقط في الماء، ولولا خفتها لسقطت من فوق ظهرها، وهي تنادي: "اجريو سلكوا بنتي.. خليوني أنا"، بكلمات متقطعة وأسنانها تصطك ببعضها. كثرت النسوة من حولها، إلا أنهن لم يستطعن تقديم المساعدة لها، فقط يقدمن النصائح من بعيد وبعضهن يلمنها على

الذهاب إلى عمق الوادي رفقة ابنتها فوق ظهرها، بالرغم من أن الوقت غير مناسب لإلقاء اللوم عليها فالمهم هو إنقاذها قبل فوات الأوان.

في هذه اللحظة، جاء محمد ينادي من بعيد رفقة أخويه الصغار: "يما.. يما.. يما". كان ليس ببعيد عن الدشرة رفقة بعض الصبية، يختارون مثل هذه الأيام الباردة من أجل وضع الفخاخ للطيور. وصل إلى المكان وأراد أن يرمي بنفسه من أجل إنقاذ أمه التي تصارع الماء البارد والجليد، لكن النسوة منعنه.

***

مرت ثلاثة أيام على ذهاب رجال الدشرة، للبحث عن "الطاهر" الذي خرج رفقة ابنيه، ولم يعد إلى حد الساعة. أصبحت الدشرة التي تغرق في الجليد والثلج الذي لا يتوقف عن السقوط، خاوية على رجالها، ماعدا بعض الصبية رفقة النسوة. لذا، قررن المبيت عند إحداهن في بيت واحد من أجل الرفقة وكسر الخوف والرعب يبتن الليل يدعون الله لرجوع أزواجهن الذين خرجوا ولم يعودوا ولا أخبار عنهم إلى حد اليوم، لا ينمن وتبيت أغلبهن مستيقظات من الخوف، لأن الرياح لا تتوقف عن مداعبة السطوح والقرميد، وفي بعض الأحيان تشتد فتوشك أن تقتلعها من فوق رؤوسهن، وكذا أصوات الحيوانات المتوحشة خارج البيت، التي تخرج في فصل الشتاء إلى العلن، لأن أغلبها لا تجد الغذاء، وتبيت الكثير منها تحاصر البيوت طمعا في فريسة حتى ولو كانت من البشر، وحدث

في الكثير من المرات أن هاجمت الأشخاص في وضح النهار، خاصة حين تتراكم الثلوج.

لما يطلع النهار تخرج النسوة، فيجدن علامات وأثر أقدام خنازير كثيرة، وفي كل الاتجاهات، وقد حفرت محيط البيت، بحثا عن شيء تأكله.

***

حين مالت الشمس إلى المغيب، جاء صبي مهرولا وهو ينادي: "راهم جاو.. راهم جاو". فاندفعت النسوة إلى خارج البيت، ينتظرن ما يحدثهن به الأزواج، بالرغم من أن أغلبهن تنبأن بشؤم، سوف يحل بذلك الأب وأولاده، ولن يرجعوا إلى أهلهم أبدا، لكن مشيئة الله كانت أكبر من كل التأويلات، واتضح في ما بعد أنهم علقوا في سفح جبل وانهارت عليهم الثلوج من كل مكان، بعدما كانوا يتتبعون الأبقار، غير أنه ولحسن حظهم، فإن راع من سكان هذا المكان وصل إليهم قبل فوات الأوان، واستطاع رفقة بعض أهل الدوار إنقاذهم، في اليوم الأول من الحادثة قبل أن يغرقهم الثلج الذي لا يتوقف في هذه الأيام عن السقوط خاصة في المرتفعات وبعد إنقاذهم بقوا ضيوفا عندهم، حتى وصل أهل الدشرة الذين خرجوا بحثا وطلبا لنجاتهم.

***

دخل إلى البيت وهو يحمل بندقيته، وبقايا الثلج تغطي كتفيه ورائحة دخان الحطب تفوح منه، فوجد زوجته نائمة، والفرن مشتعل، وولده يقف عند رأسها، يضع يديه على خديه يتأملها. نهره بصوت مرتفع، حتى اهتزت فاطمة من فراشها وهي تتمتم: "لا حول ولا قوة إلا بالله.. الله يسترنا"، وصرخت ربيعة صرخة قوية بعد هذا الصوت الذي حرك كل زوايا البيت الذي يغرق في الفوضى. ففي مثل هذه الأيام ينقطع الكهرباء، وتغرق كل البيوت في الظلام، ولا يعاد إصلاحها إلا بعدما تشق الطرقات من كثرة تراكم الثلوج، لكن يتكرر انقطاعها كلما اشتدت الرياح.

- وشبيك، هذا وقت رقاد.

لم ترد عليه فاطمة، وبقيت تنظر إليه نظرة حزينة تغطي محياها.

غير أن ولده "محمد" رد عليه، بابا.. يما قريب داها الواد.

كانت تنتظر أن يقفز إليها ويسأل عنها، وماذا حدث لها، وهل تحسنت حالها.. لكن هذا في خيالها، لأن الحقيقة أنه دخل في هستيريا من الضحك، بل وتمنى لو أكمل الوادي مهمته، وأرسلها إلى قبرها، ثم توقف عن الضحك وسأل ولده: شكون جبدها؟

نظر محمد إلى والدته، وبنوع من التردد قال له:

- مر غريب بالقرب من الدشرة، ولما رأى النسوة متجمعات على الوادي ويصرخن، رجع وأنقذها.

- ثارت ثائرة علي، وبدأ يصرخ في وجه فاطمة، التي زاد بكاؤها كان من الأفضل أن تتركي الوادي يجرك، على أن تسمحي لغريب بأن يحملك بين ذراعيه.

لم يحزن لأن الوادي كاد أن يأخذها ويلفظها جثة هامدة والجليد يحاصرها من كل مكان، بقدر حزنه على إنقاذها من طرف غريب عن الدشرة، هكذا بعض الرجال يفضلون موت زوجاتهم وهن يصارعن الهلاك، على أن يطلبن المساعدة من طرف الغرباء حتى ولو كان هذا من أجل طلب النجاة.

***

إنقاذها من طرف غريب، عار آخر، يضاف إلى عار البنت التي حملت بها.. هذا ما كان يردده كلما جلس إلى بعض رجال الدشرة لم يخف عليهم أنه كان يتمنى أن يبشره أحدهم بغرقها، على أن يبشره بنجاتها من طرف رجل غريب لا يعرفه، وكيف حدث أن كان حاضرا في وقت غرقها في الوادي؟ وهل كان يعرف أن الدشرة كانت خاوية من الرجال؟ كان يوسوس للرجال كلما جلس إليهم بهذا الكلام.. هل إن الغريب تعمد الاقتراب من الدشرة، بعدما عرف أنها خاوية من حماتها، وصدقه بعضهم، بل ودعاهم إلى ضرورة الخروج للبحث عنه في الأماكن المجاورة، من أجل معرفة الحقيقة منه، ولماذا أنقذ هذه الغريقة، وهي زوجته؟

سمعت والدته بما يدور في حديثه مع بعض رجال الدشرة فأرسلت إليه محمد ولده بضرورة المجيء لأمر طارئ. تأخر في المجيء لكنه حضر..

- واش راك تظل تحكي مع الرجال؟

- راني نحوس نعرف كيفاش هذا الغريب جا للدشرة..

- هذاك ماشي غريب.

التفت إليها علي بنوع من الدهشة والاستغراب ثم ابتسم لها..

- نعم.. هذا رجل، يعيش وحده في الغابة، كان يعرف باباك مليح، يقولوا إن العايلة نتاعو ماتت كامل وبقى وحدو في الغابة.

- وكيفاش ماتت؟

- كل واحد واش يقول، كاين لي يقول من طرف مجموعة من "الخنازير"، رفستهم بعد يوم عسير في الثلج، وكاين لي يقول صب الثلج وغلق على العائلة نتاعو في الدار، وهو كان عندو خالتو في المدينة، ونهار فتحو عليهم البيبان لقاوهم ماتو من البرد، باباه ويماه وزوج خواتتو البنات.

توقف حديث علي عن هذا الغريب فجأة، في الوقت الذي كان الرجال ينتظرون قرارا منه، من أجل الذهاب للنيل من الذي اقترب إلى الدشرة في غيابهم. تفاجؤوا برد فعله، عندما طلب منهم عدم الخوض في هذا الحديث مرة أخرى، وكان مسموع الكلام بينهم، لأنه شديد القوة مندفع، قد يقدم على أي عمل متهور.. لذا، كان يتجنبه الكثير منهم.

كان إهمال "علي" لزوجته، وهي تعاني في فراشها واضحا. بل، في بعض الأحيان، يطلب منها النهوض متعمدا، من أجل تحضير العشاء أو الغداء للأولاد، وهو يدرك أنها لا تستطيع الحركة.. عاشت معه الإهمال بكل تفاصيله، غير أنه في أيام مرضها زاد إهماله لها، كان يردد عليها أنه كان يتمنى أن يأكلها الوادي، ولا ينقذها أحد. في الغالب، لا تردّ، خوفا من رد فعله، فقد يحملها فوق ظهره ويرميها خارج البيت.. تعرف قسوته عليها وحقده الدفين، الذي زاد مع مرور الأيام، منذ أن رفضت ميراث أبيها وتركته لإخوتها. كان يعتقد أنها أقدمت على هذا الفعل بمحض إرادتها، انتقاما منه، على سلوكه معها، أقسم منذ تلك اللحظة على أن يريها كل أنواع الذل والهوان، حتى تلقى والدها في المقبرة.. وكان ذلك فعلا.

الصمت يقتل، والإهمال يقتل، واللامبالاة تفيض الروح. كانت فاطمة تطرق أبواب الموت، عشرات المرات كل يوم، تبكي خلسة بعد خروجه، بكاء صمت على حالها. أدركت مع مرور الأيام أن هذا الإهمال هو الذي سوف يقتلها، فلا تكاد تستطيع أن ترمي لقمة الطعام إلى فمها، إلا في بعض المرات، حين كان ولدها يساعدها على ذلك، وحين يراه والده ينهره، ويطلب منه الخروج للرعي، حتى ولو كان هذا كذبا، فقط من أجل إبعاده عن أمه، وعدم مساعدته لها.. ورغم أن والدة زوجها كانت تظهر لها الحنان في بعض المرات لكنها في الأخير لن تختارها على ابنها، وكانت تردد على مسمعها كل يوم أن حزن ولدها هو بسبب هذه البنت، التي غيرت طبائعه نحوها، فترد

عليها فاطمة: "لالالا، وليدك من اليوم الذي حرمته من ميراث بابا وهو يطاردني كالمهبول".. فتنهرها العجوز لعدم ذكر هذا الكلام على مسمع ولدها، خوفا عليها. فتبتسم فاطمة ابتسامة سخرية ثم تعتدل في فراشها، وهي تحمد الله على كل حال.

مع مرور الأيام، لم تصبح فاطمة مهتمة كثيرا بنفسها، بل كانت تنظر على يمينها وهي تغازل براءة ربيعة، التي بدأت ملامحها تعتدل، ويظهر جمال وجهها من يوم إلى آخر، وهي تردد عليها: "من هو لي بيك يا بنتي بعدي.. على بالي نهار نموت يرميك باباك".. كأنها تخبرها أنها راحلة عنها، وتطلب منها العفو، لأنها أتت بها إلى هذا العالم الموحش، الذي تزيد وحوشه الضارية كل يوم، ليس في الغابة، لكن بين البشر. كلما نظرت إليها، تتهاطل الدموع وتنهمر على خديها متسارعة.. تعيد مسحها، وتستغفر الله ثم تقبل ربيعة بشدة.

***

رجع بعد الدفن إلى البيت، وهو يشتم ويسب بكلام بذيء كلام مسموع، في بيت العزاء، والناس من حوله ينظرون مستغربين لما حل به. واساه الكثير، وضمه بعض رجال الدشرة إلى صدورهم، وهم يدعون لها بالرحمة، لكنه كان لا يبالي، كان لا يرد عليهم، فقط بصره شاخص، كمن أصابه مس. سارعت إليه والدته، وطلبت منه الذهاب إلى بيتها من أجل الراحة، وهي سوف تهتم بدار العزاء رفقة إخوته. لم يرد عليها، فقط خرج دون رجعة حتى حل المساء.. وجاء يجر رجليه اللتين أصبحتا ثقيلتين. لاحظ الكثير أنه ليس في حاله

المعتادة. وتساءل البعض: هل حقا وفاة زوجته أيقظت ضميره، مما كان يفعل بها؟ هل وجد نفسه السبب المباشر في وفاتها بعد كل ذلك الإهمال، وهي طريحة الفراش؟ لكن فوات الأوان لا يحمل في طياته إلا الندم. بقي على هذه الحال مدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع، سمع صوته يعلو حتى لامس السقف سارعت والدته إليه تدعوه "أن يخزي الشيطان"، لكنها تفاجأت بالحال التي وجدت البيت عليها.. كل شيء مرمي على الأرض عشوائيا، ولم تسلم حتى ألبسة المرحومة.. أرادت أن تهدئه، لكنه دفعها بقوة، حتى كادت أن تقع أرضا. وهي المرة الأولى التي يتجرأ فيها على هذا الفعل، لكنها أصرت على لجمه وتوقيفه عن كسر كل شيء قابل للكسر أمامه. وبعد لحظات، انزوى إلى أقرب ركن كان واقفا أمامه، وهو يضرب على رأسه.. اقتربت منه والدته، من أجل توقيفه ومعرفة سبب هذا كله فرفع إليها رأسه:

- بنت الكلب، قبل وفاتها تصدقت بكل ما أملك، حتى بالشيء القليل من مجوهراتها..

- يا خاه.. ردت عليه والدته.

- كنت أعرف أنها تنتقم مني عندما تسترجع قواها، لكنني مكونتش نظن أنها سوف تدفعني إلى الفقر، وأن تتصدق بكل ما جمعته من مال منذ مدة.

- كانت الصدمة واضحة على محيا الوالدة، التي قررت الخروج في صمت، وهي تحرك رأسها، استغرابا منها، وحزنها على ما وقع من

فاطمة التي رحلت هي كذلك في صمت، فلم يعلم أحد بموتها في فراشها، إلا بعد مطلع الشمس، حين جاء ولدها محمد يوقظها لكي يقدم لها حليب الصباح خفية، قبل أن يرجع والده من الرعي لكنه وجدها جثة هامدة، وجسدها بارد كبرودة معاملة زوجها لها فرمى الكأس من يده وهرول يجري إلى جدته.

خرج علي مباشرة بعد خروج والدته، وهو يحمل فأسا بيده اليسرى، وهو يهرول تجاه المقبرة. فنادته بأعلى صوتها فسمعها من كان قريبا منها في الدشرة، قبل أن يصل إلى المقبرة، وهو يردد: اليوم نفتح عليها قبرها باش تأكلها الذيابة والكلاب، والله لن تهنأ حتى في قبرها، غير أن بعض الرجال وصلوا إليه، واجتمعوا حوله وهم يهدؤون من روعه ونرفزته، وأعادوه إلى البيت، وهو يسب ويشتم ويلعن فاطمة، التي يظهر أنه لا يريد ذكر محاسنها أبدا.

***

ارميها إلى الكلاب يأكلوها وهنينا منها.. خاطب علي والدته، كانت تلف ربيعة في قطعة قماش، وهي تبكي.

- هذي طفلة صغيرة واش دخلها في حكايتك، اسمع، خاف ربي واخرج عليا..

شاهد علي لأول مرة والدته تنهره بتلك الكلمات، وتدافع عن هذه القطعة من اللحم، كما يقال، التي بقيت ذكرى معلقة في بيته من المرحومة، كلما ذكرها لعنها، بدلا من أن يطلب لها المغفرة سواء في

البيت أم بين الرجال، فيندهش الكثير من كلامه، ولم يتجرأ أحدهم على معرفة السبب.

_كيفاش عرفت أن فاطمة تصدقت بالمال والمجوهرات قبل وفاتها؟.. سألته والدته.

- كنت في الغابة، جاءتني الحاجة ذهبية، وقالت لي إن فاطمة أرسلت إليها أمانة مع محمد، بلغها السلام، وربي يطول عمرها ولم أكن أعرف أنها تصدقت بنصف ما أملك، ليس للحاجة ذهبية بل للكثير في الدشرة، مثل يمات اليتامى، التي تسكن بمحاذاة الغابة ولما ماتت "الله لا يرحم لها عظم"، تفقدت المال فلم أجد نصفه تقريبا.

وبينما هو يحدث والدته عما فعلت فاطمة قبل رحيلها، حتى ظهر ولده محمد أمامه..

- ارواح لهنا، قولي كنت علابالك، واش بعثت معاك يماك إلى الحاجة وردية ويمات اليتامى؟

- ارتجف محمد أمامه ورد عليه: لالا بابا..

فصفعه صفعة قوية: "امش الله يلعن يماك لي رباتك".

بقي ينظر إلى والدته وهي تكور ربيعة، مرات ومرات، ثم اقترح عليها أن يتصدق بها إلى من ليس لهم أطفال..

- وشبيك هبلت، أنت تمد بنتك إلى واحد غريب.

-علاش، المهم نخرج هذا النحس من الدار، قبل ما تاكلي راسي.

لم ترد عليه والدته، لكنها ابتسمت ابتسامة، ربما علامة رضا عن الفكرة التي اقترحها عليها ولدها، خاصة أن العمر قد تقدم بها، ولا يمكن أن تكون مرضعة لهذه البنت الصغيرة.

ثم ردت عليه: معليش، إذا صح تمدها شكون رايح يقبل طفلة يربيها، علاش أنت باباها وراك حاب ترميها.

فكر مليا ثم رد عليها: نحوس على واحد يربي بنت خير من معندوش أولاد.

ختمت والدته الحديث إليه، بقولها: صح في هذي عندك الحق.

تنبأت فاطمة قبل وفاتها، بما سوف يحل بربيعة، هذه الصغيرة، التي حرمها القدر من حضن والدتها، وسوف تهجر ربما إلى بيت آخر، عند غرباء لا يعرفونها.

***

لم يظهر ذلك الشاب الغريب الذي ظنت أنه يراقبها منذ أكثر من أسبوع، ضحكت من نفسها، لأنها اعتقدت في لحظة ما، أن هناك من يهتم لأمرها، وهي التي تعرف أنها كانت محل سخرية الجميع، أينما حلت وارتحلت، فكيف ظهر بين عشية وضحاها من يراقبها حتى ولو من بعيد، برغم أنها كانت عطوفة حنونة مع الجميع، وهي الطريقة التي يتبعها من لا شأن له بين أصدقائه لكسب مودتهم، لأن هذه الطيبة هي الخلاص الوحيد لهم، من أجل توقف الآخرين عن السخرية منهم، ولو لبضع ساعات. لذا لم تسلم من الحماقات التي كانت تتلقاها يوميا، من الذكور والإناث على حد

سواء.. كانت جارتها وردية الأنيس الوحيد لها والوحيدة التي أنستها غربة الأصدقاء، لكن الأمل هو خلاصنا في هذه الحياة، والحلم حق مشروع في الوجود، حتى ولو كان ذلك الذي يراقبها من أجل الفضول فحسب، كانت تعلق عينيها كل صباح إلى النافذة، بحثا عن ذلك الذي كان يشق النظر إليها من بعيد، أرادت أن تبوح إلى وردية بما يدور في خلدها، لكنها خافت من رد فعلها، فربما تجرح مشاعرها حتى من غير قصد، وتنتهي علاقتها مع بني البشر، فلو مسها سوء من وردية فسوف تكون الأخيرة على قائمة الأصدقاء المشطوبين، وهي لا تريد ذلك، على الأقل في الفترة الحالية.

لكنها غامرت في لحظة، وأقسمت على أن تبوح إلى وردية بما يجول بداخلها، حتى ولو كان على حساب صداقتهما، ولا يمكن الحكم على رد فعلها.. لذا، على الأقل الحديث إليها ثم معرفة كل شيء في أوانه، وبالنظر إلى علاقتهما، فإن وردية كذلك لن تغامر بإفساد علاقتها بربيعة، حتى من دون قصد. فلو حدث هذا فسوف ترجع إلى يتم الصداقة وجفاء المحبة التي تطالها منذ فترة طويلة، قبل مجيئها إلى هذا الحي.

وبعد تفكير طويل، دعتها إلى الشرفة للحديث إليها عن الشاب الذي كان يجلس قبالتها، فمن يدري، ربما تكون محظوظة لو أتى في هذا اليوم، فتكون أقوى حجة على صدق حديثها في هذا الموضوع.

لاحظت ربيعة ذلك الاهتمام الذي كانت عليه وردية، وهي تسمع إلى قصة الشاب الذي كانت عيناه تغازلانها من تحت نظارة شمسية، كما كانت بين الحين والآخر تخطف نظرها لتحسس المكان الذي كان يجلس فيه قبالة شرفة المنزل، وهي تفتش عنه بين المارة، ربما يكون جالسا في زاوية أخرى ينظر إليهما، وهما يتحدثان عنه. ظهرت على ملامحها سعادة لا توصف، بالرغم من أن القصة لا تعنيها، لكنها اعتبرت القصة قصة أخت لها، ولا تملك غيرها.. ما إن أتمت ربيعة قصة الشاب الذي اختفى منذ مدة، حتى قفزت إليها صديقتها وأخذتها في الأحضان، تقبلها تقبيلا عشوائيا لم تعرف ربيعة ترجمة هذه القبلات، لكنها أحست بحرارتها أحست بإحساس ضمة الصدر، حين يضمنا من يحبنا حقيقة تذكرت في هذه اللحظة حنينها إلى أم لم تضمها يوما، وفارقت الحياة، دون أن تلامس ملامحها، كما يفعل كل الأولاد الصغار.. انتابها شعور غريب، وهي تشم عطر صديقتها الوحيدة، التي تحس بالأمان معها، فغلبتها الدموع، فسقطت واحدة على كتف وردية التي لم تدرك ذلك حتى ابتلت نهايات شعرها، وحين رفعت محياها إلى ربيعة، وجدت عينيها غارقتين في دموع صافية تحمل معاناة سنوات طويلة.

***

تلاشت ذكرى الزوجة "فاطمة" من الوجود، كما تتلاشى أوراق الخريف حين تلامس الأرض، وأصبحت ذكرى لامرأة عاشت كل أنواع الضياع في حياتها.. لذا، عضت على الفناء بالنواجذ حين طرق بابها، رغبة في الهروب، كحال من يهرب قبل موعد مجهول هروبا من واقع مرير مع زوج متسلط يمتلئ غيظا وكرها، كل يوم جديد تغازل الشمس فيه الوجود، زوج لم يذكرها من ذلك اليوم الذي نزلت فيه إلى قبرها البارد، الذي لم يختلف عن يومياتها في الحياة، فقد يتذكرها بالسب والشتم، كلما تذكرها حتى في خلوته لم يحزن عليها ولم تغازلها عيناه ولو بدمعة واحدة، حتى ولو كانت كذبا، لم يزرها في قبرها، الذي أكلته الأعشاب، وأحاطت به كل البقايا التي تحملها الرياح من كل مكان، وتعلقت ببعض أحجاره التي بقيت متعلقة بضوء الشمس، لأن أغلبها غرقت كما غرق هذا الجسد في الطين وأصبح لا أحد يذكره، كأن ذكراه لا تحمل أي نوع من العطور.. رحلت وبقيت معلقة بعالم الوجود، بتلك القطعة التي أنجبتها من أحشائها ورمتها إلى الحياة، لأنها كانت تدرك أنها موشكة على الرحيل، لذا كانت تبكي بحرقة، على حال ربيعة من بعدها، وكأنها تنبأت بمسار حياتها بعدها، فقد عاشت هي كذلك السنوات الأولى في هذا العالم، كل ألوان المعاناة، كأن والدها كان ينتقم منها، بعدما هجرته والدتها إلى الأبد، وتركت غيظا قاتلا بين أضلعه، ارتسمت في هذا العالم فتاة بهية الطلعة تحمل جسدا نحيفا، ترميه في ثياب رثة، وحذاء من بلاستيك، لا يكاد يفارق قدميها الصغيرتين طوال

السنة، إلا أنها كانت حادة النظر في ما يدور حولها، لم تعرف طعم اللهو، كالجري وراء الفراشات في الحقول، وما صنعت العرائس الصغيرة من بقايا القماش، كغيرها من الفتيات، عرفت منذ السنوات الأولى التي أصبحت تفرق بين الشر والخير، أن المرأة في هذه الزاوية المظلمة من الأرض، لا يفصل بينها وبين البهائم أكثر من خط في الرماد عرفت أنها سوف تبقى مثل من يحمل عارا بين أضلعه، وكلما مر بقوم أشاروا عليه وذكروه بعاره فيتكوّر في خجله، ويسارع مهرولا بالهروب.. كانت أول صدمة لها في هذه الحياة، حين أهداها القضاء قدما عرجاء، لا تكاد تلمس بها الأرض، وهي بقايا من ذكرى سقوط والدتها في الوادي، في يوم بارد مثلج، فلم ينتبه إليها رغم ما كانت تعانيه من ألم، ورغم حرص والدتها عليها، إلا أنها حين اكتشفت ذلك كان الوقت قد فات، ورغم محاولات، العجائز بالتدليك بزيت الزيتون، وهي طريقة قديمة لمداواة ألم العضلات فقد جبرت عوجاء، وبقيت كذلك، وحملتها كتذكار مأساة منذ الصغر. الغريب، أنها لم تنتظر الغرباء لكي يعيروها بهذا النقص لأن والدها كان السباق، فكلما اقترب إلى البيت ناداها من بعيد: "يااااااا العرجاء".. ومن هنا، حملت هذا اللقب، الذي طاردها منذ الصغر من دشرتها، وبعد دخولها للدراسة، حين كان كل الأطفال يتداولون عليها بالسخرية، وانتشر هذا اللقب الذي يتنابزون به معها، لأنها كانت مجتهدة، والطريقة الوحيدة للنيل منها من بعض من يغارون منها، هو تذكيرها بتلك القدم العرجاء، كمثل شاة لا تصلح

للأضحية، لكن كان انتقامها منهم هو تفوقها عليهم، ولم يكن يهمها ذلك النقص، بقدر كمال عقلها في الدراسة.. حزن عليها الأساتذة يوم علموا أن والدها أوقفها عن الدراسة، ورأوها خسارة للمدرسة ولمستقبلها، ورغم كل المحاولات، لم يستطيعوا إقناعه بإرجاعها إلى مقاعد الدراسة، وبقي مصرا على سجنها في البيت تتبع الغنم والأبقار في الغابة.. لذا، فقد حرمها الدراسة، وسلب منها الطفولة وكذا البراءة، التي ذابت في المسالك الصعبة، وهي تجري وراء الماعز في كل الاتجاهات، وتتسلق الأشجار العالية، من أجل قطع أغصان الأشجار للغنم، وكأن الشيء الوحيد الذي ورثته عن أمها هو الشقاء والتعب، وقسوة والدها، التي تزيد يوما بعد يوم.

***

عاشت وحشة البيت والعائلة، بالرغم من كونها مع أهلها، فلا أحد يحترمها، حتى أخوها البكر انقلب عليها، فأصبح مثل رجل صغير هو كذلك، وتعلم أول درس في هذه الدشرة، أن المرأة إنسان لكنها في المرتبة الثانية، فحين يجلس الرجل إلى مائدة الأكل، تتخلف هي وتبقى تراقب من بعيد، حتى إذا أكمل، لا تتقدم إليه حتى يناديها، فتأتي تهرول على عجل، لكي تتناول ما تبقى من الفتات تعالج به بطنها من شدة الجوع والألم، ثم ترمي جسدها في فراش بارد، وحين يسحب عنها الغطاء لا تتجرأ على أن تعيده عليها، وتبقى تلتوي إلى جنبه من شدة البرد، أما حين تقام السهرات الرجالية فتختبئ النساء في الزوايا المظلمة، ويبقين ينتظرن نهاية هذه

القهقهات، التي لا تنتهي في بعض الأحيان، إلا وقد أوشكت الشمس على الطلوع، لكنهن مجبرات على البقاء، ولو غلبهن النعاس وهن قيام.. هكذا كانت حياة النساء في الدشرة، وانضمت إليهن ربيعة وارتضت من هذه التقاليد ما ارتضته كل أنثى من قبلها.

***

بين شغل البيت الذي لا ينتهي، وبين الرعي في الغابة، وتتبع البهائم في كل مكان، كانت يوميات ربيعة تنقضي، بعد أن أوقفها والدها عن الدراسة.. تخرج باكرا عند النجمة، كما يقال، وترجع مساء بعد المغيب.. كسبت قلب رجل شجاع، فلا عويل الذئاب أو نباح الكلاب، ولا آثار أقدام الخنازير، كانت ترهبها، بل أصبحت راعيا يحمل غذاءه، ويسافر بين الأشجار، وهو يحمل الناي ويداعب ثغراته في بعض الأحيان، ليخرج بعض الألحان. سفرياتها في الغابة الموحشة لوحدها، أسالت لعاب الكثير من الرعاة، من أقرانها أو ممن يكبرونها سنا، في الكثير من المرات، فحين تقترب الشمس من المغيب ويعم الهدوء، تحت الأشجار، وفي حضرة فتاة بين الذكور، يتلاعب الشيطان بالعقول، ويزين لنا جسدا حتى ولو كنا نكرهه.. فحدث معها في عدة مرات أن اقتربوا منها، بحثا عن شرفها بعيدا عن الديار.. لكن عنادها كان يقيها في كل مرة شر هؤلاء. وبرغم ما كان يحدث معها في الغياب، إلا أنها لا تتودد إلى والدها أو أخيها، من أجل نهر من يريد أن يداهم شرفها في الغابة على عجل،

لكنها كانت تدافع عن نفسها بنفسها، وتذهب وترجع سالمة، رغم الكثير من المحاولات، التي باءت بالفشل.

***

كان من الممكن أن ترجع ربيعة في أمسية ما، جثة هامدة بعدما داستها الخنازير، أو قطعت بأنياب الذئاب، أو مزق شرفها من طرف الرعاة، وأتتهم تحمل على ساقيها، أثر دم بعد الاعتداء لكن، لا هذا ولا ذاك حدث، بالرغم من أن والدها كان يدرك كغيره من أهل الدشرة، أنها معرضة للهلاك في أي لحظة، فالغابة الموحشة تحمل بين ظلالها وهدوئها رعبا لا يخطر على قلب بشر.. فالحديث عن وساوس الشيطان، وعودة الأرواح إلى الحياة، وزيارة الغرباء إلى هذا المكان، والغربان التي تسبح في السماء وتتحول إلى قوارض آكلة اللحوم، ربما خرافات، لكنها ليست ببعيد.. لكنه كأنه يتعمد الخلاص منها، حين يرسلها إلى الغابة وحيدة، تجر قدمها العرجاء وتصارع الخوف والظلام كل يوم.. وربما كان ينتظر عودة خبر نعيها وهي محملة إليه على ظهر حصان أو حمار فيحملها ويرميها إلى جنب أمها في المقبرة، ويكون قد تخلص من لعنتهما، كما كان يعتقد.

****

قبل أن تصل ربيعة، البنت الصغيرة المجتهدة التي حرمت الدراسة إلى هذه السن، وهاهي اليوم تتبع البهائم في كل مكان تنقلت بين أيادي نساء أعمامها مثل كومة من قماش، حيث تعاقبت بين أيديهن من أجل إرضاعها، وتربت في حضن الشفقة أكثر من حضن

الحب والحنان، فلم تستطع جدتها تربيتها لكبر سنها، لذا اشتركت بعض النسوة في الرضاعة والتربية، وتنقلت بين البيوت وهي صغيرة، كل يوم يسمع صوتها في بيت جديد، ووالدها بعيد لا يعرف حالها، فقط حينما يطلب، يأتي على مضض، لهذا اعتبرتها عائلات أعمامها واحدة من أفرادها، وحين بانت ملامحها إلى ضوء الوجود تنقلت بين كل الأسر التي اشتركت في تربيتها بالخدمة والطاعة، حين تطلب، وكأنهم يقرون لها بأنها مدينة لهم وهي اليوم حية ترزق بفضل تعب كل واحدة منهن، كانت تفهم هذا جيدا، خاصة أن جدتها كانت توصيها دائما بالسمع والطاعة، لكل من أسهمت في تربيتها، وبقيت ترد هذا الدين وهي صغيرة بما استطاعت.. جدة فارقت الحياة في بيتها وحيدة، دون أن يعرف ولدها علي، وحين نهض ابنه محمد إلى جنبها، وجدها باردة كبرودة والدته حين مماتها. لذا، فقد شهد وفاتين اثنتين من عائلته، لم يبكها ولدها بكاء مفقود عزيز، بل بكاء دون دموع، وربما لم يحس بفراقها، واعتبرها مثل جسد آخر أضافه رفقة أهل الدشرة إلى مقبرة الحارة. أما من أحس بفقدانها حقا، فهو محمد ابن ولدها الذي كان يبيت في حضنها يشم رائحة لباسها القديم، الذي كانت تعطره بعطر قديم احتفظت به منذ ممات زوجها، كما ألف رائحة دخان الحطب الذي كان يتغلغل بين ثيابها.. لذا، فقد بكاها بكاء ثكلى، ولم يتوقف عن البكاء، حتى لطمه والده، ورماه من أمامه بركلة موجعة، وهو

يلعنه. من تلك اللحظة، توقف عن بكاء جدته، وأصبحت ذكرى، بعدما كانت حية حاضرة، ينام في حضنها.

***

أشار عليه بعض أهل القرية بضرورة الزواج من أجل الأولاد.. زواج تم بعد مرور شهر ونصف من وفاة والدته، لم ير ضرورة للانتظار، فخير البر عاجله، كما يقال، لذا اجتمع أهل الدشرة عنده في ليلة باردة، على الكسكس، يتناوبون على القهقهات العالية والنكت، بعدما اختار بنتا من دشرة قريبة، تجاوزها سن الزواج في اعتقادهم، لذا كانت سهلة المنال وقد تجاوزت الأربعين، حتى ولو كانت عذراء ولا عيب فيها، لأن من تتجاوز العقد الثاني في الدشرة لا تملك الحق في اختيار زوجها، بل تساق كما تساق الشاة إلى المذبح، ترى السكين تداعب رقبتها وهي لا تبالي، وتم كل شيء بسرعة.. ليلة كانت فيها ربيعة العرجاء، كما يلقبها، خادمة لزوجة أبيها. وبعدها، في الأيام العادية، تحولت كذلك، حتى ولو لم تكن هي التي تشير عليها مباشرة، لكن عن طريق والدها، الذي تذكر في لحظة ما تدليل رفيقة الحياة زوجة، وهي عادة الكثير من الأزواج يذيق كل شيء مر للزوجة الأولى التي عاشت معه القهر والعذاب وحين تموت أو تفارقه يأتي بأخرى، تعيش معه كل الدلال.. كان هذا واضحا، في سلوكاته التي تغيرت فجأة وأصبح ذلك الوديع، الذي يصبح كل يوم يتحسس شاربه أمام البيت قبل الرحيل، ونقص صياحه، الذي كان يسمع من كل مكان، كأن الزوجة الثانية عدلت

أوتار حياته. مع مرور الوقت، كانت زوجة والدها عطوفة حنونة عليها، وفي الكثير من الأحيان تحول بينه وبينها، حين ينزع الحزام من خصره أو خيط الكهرباء، ويتقدم إليها ليضربها ضربا مبرحا يسمع من كل مكان.. لكن، منذ أن حلت هذه الزوجة بالبيت، أصبح كمن يخاف منها، فلا يقترب إلى ربيعة إلا نادرا، لكن لا يتوقف عن الدعاء عليها ولعنها، وكانت ترد عليه الزوجة: وشبيك معها؟ علاش تعاملها هكذا؟ مهما حدث لك مع والدتها، لا تزر وازرة وزر أخرى.. وفي الأخير، شئت أم أبيت، هي بنتك من صلبك. كان ينظر إليها دون أن يرد عليها، كمن يخاف منها ثم ينصرف

***

لم يكن والدها يعتقد أن قلب زوجته الثانية سوف يلين على العرجاء، كما كان يسميها، منذ أن بان عوج قدمها، فكان يراقبهما وهما يضحكان ويتبادلان النكت في أغلب الأوقات، وحين يضيق صدره من هذا ينادي عليها دون سبب، وكأن الغيرة تتملكه في هذه اللحظات، التي يرى فيها الغريبة تداعب فلذة كبده، التي لم يعترف بها يوما، ولم تر منه الحنان، ولو كذبا، ولم يلاطفها، ولو على عجل.. كان يقف في الكثير من الأحيان يحملق فيهما من بعيد، حين يرى زوجته تمشط لربيعة شعرها تحت الشجرة الكبيرة، وهما يضحكان بصوت مسموع، كأن محبتهما كانت منذ الأزل، وتنفض الغبار عن شعرها وأوراق الأشجار، التي تحملها معها من الغابة حين ترجع كل مساء من الرعي، كان يحس في هذه اللحظات بأبوته العرجاء وليس

بعرج ابنته.. فلماذا يحمل كل هذا الغيظ والكره لربيعة، التي لا تدري سبب كرهه لها؟ لماذا يعتبرها مجرمة وهي بريئة براءة الذئب من دم يوسف؟ لكن، لكونها أنثى، فهذه حجة ليسيء معاملتها، وهو مصمم على هذا الظلم في حقها، بل في الكثير من الأحيان، ينهر زوجته لعدم التواصل معها، وتدليلها على حد قوله، لكنه كان يلقى الرد السريع منها، ردا لا يستطيع أن يبلعه ولا أن يقذفه: "واش دخلك أنت".. وكانت تشير عليه بعدم التدخل في علاقتها بربيعة. شيء غريب، أن يحدث هذا الود بين زوجة الأب وأولاده، لكن مع مرور الوقت، اتضح أن هناك سببا، فهذه الزوجة كذلك عاشت قهر زوجة أبيها، منذ صغرها، حين فقدت والدتها وهي في السنوات الأولى من عمرها، وعاشت الضياع بكل ما تحمله الكلمة، ووصلت في بعض الأحيان إلى التفكير في شنق نفسها هروبا من جور زوجة والدها، لكن القدر كان عادلا، فبدل أن تشنق نفسها، هبت الرياح في يوم عاصف، وخطفت زوجة أبيها من شجرة، كانت تقطع أغصانها للغنم، وألقتها على الأرض بعنف كما تصطدم الأمواج بالصخور، ماتت في الظلمة لوحدها، ولم يجدوا جثتها إلا في وقت متأخر من الليل، حين هدأت الرياح.. كانت تقص قصتها على ربيعة، والدموع تملأ عينيها، حتى سقطت دموعها على محيا ربيعة، التي كانت مستلقية في حجرها.. تذكرت كل لحظة معاناة مرت بها، تركت على روحها خدشا واضحا للعيان، حتى ولو كانت تغطيها ملامح وجهها، وابتسامتها التي كانت تقاسمها اليوم مع بنت زوجها.

***

ليس من الضروري أن نشرب لغيرنا الكأس التي شربنا منها، ولا أن نعالج الظلم بالظلم، ولا الاحتقار بالاحتقار، فالبشر ليسوا سواء، كل يحمل شيئا مختلفا في صدره، كلنا نعيش تجربة معينة في هذه الحياة، لكن نختلف في كيفية التعامل مع التجربة القاسية منا من تزيده قهرا لغيره، كانتقام لنفسه، ومنا من تفتح بصره فتتغير حاله، لذا يقابل تلك القسوة بالحنان والرأفة والعطف.. وهو ما كان من الزوجة تجاه ربيعة، التي أحست فيها بعطف والدتها التي لم ترها، وعرفتها فقط، من خلال السب والشتم من والدها. نمت تلك العلاقة الودية، وظهرت ملامح هذه العلاقة، التي استفادت منها ربيعة، خاصة في الذهاب إلى الرعي وكأن الزوجة أثرت في والدها، فأصبحت لا تذهب إلا نادرا، حينما يكون الأب غائبا، وحتى إن ذهبت، كانت ترجع قبل حلول الظلام وأصبح لربيعة معنى آخر للحياة، لا تنهض باكرا، وهي ليست مجبرة على البقاء خارج البيت، حتى حلول الظلام.

***

تحسنت علاقة الأب بابنته فجأة بعد زواجه، لم يكن يظهر لها الكثير من الاهتمام، لكن وضع مسافة وبينه وبينها، لا يؤذيها ولا يرغمها على القيام بأي شيء، بل في بعض الأحيان كان يستشيرها فتقف مذهولة لا تجد ما تقول، فلم يحدث مرة منذ أن عرفت معنى الحياة، أن طلب منها طلبا دون أن يلحقها بالسوط والصياح، لكن

اليوم، يبقى ينتظر ردها، سواء بالرفض أم القبول.. وفي الغالب، كانت لا ترفض طلبا، فلا تزال ذكرياتها معلقة، بأب متسلط لا يعرف حيلة معها، إلا السوط والسب والشتم الذي لا ينتهي.

***

...كانت تحكي لصديقتها وردية هذا التغير المفاجئ الذي حل بوالدها، بل في بعض الأحيان، كان يتتبعها إلى الغابة حين تكون في رعي الغنم، ويأمرها بالعودة إلى البيت، كانت تطير فرحا، بعد هذا الاهتمام، الذي لم يدم طويلا.. بعد ثلاث سنوات من زواجه، ظهر أن زوجته حبلى بأنثى، هي الأخرى، بعد طول انتظار، فلم يتردد في طردها من البيت، وحملها على الحمار في صبيحة باردة وأرجعها إلى أهلها، رماها أمامهم وهي صغيرتها، دون أن يكلم أحدا، وعاد مثل المجنون. ومن تلك اللحظة، عاشت ربيعة، مرحلة أخرى من المأساة والمعاناة مع والدها، ضمتها في هذه اللحظة وردية إليها واحتضنتها حضنا ثقيلا، كادت أن تكسر أضلاعها، وهي المرة الأولى التي أحست فيها ربيعة بحضن كاد أن يطبق جسدها النحيف قطعت عليها وردية حديثها عن هذا الماضي، وداعبتها بضرورة الخروج إلى الشرفة من أجل البحث عن ذلك الشاب الغريب صاحب النظارة الشمسية، الذي كان يداعب حركاتها من بعيد. ارتجفت ربيعة كمن أصابه مس، وقفزت من فوق الأريكة واتجهت إلى الشرفة فوقعت عيناها على ذلك الشاب، الذي يداعب شعاع شمس ما بعد الظهيرة، كأنه ينتظر خروجها على شرفة البيت، مثل طائر، مل من

وكره فقفز إلى أقرب غصن منه.. تركتها وردية تصافح ذلك الغريب بنظرات بعيدة، وتتناغم حركاتهما، وهما قريبان. كان الوصال دائما بخيوط ضوء العيون وهمسات تحمل الكثير من الضجيج. نسيت ربيعة لحظات الحزن والأسى، بعدما رحلت مع هذا الغريب، فوق أجنحة شوق، بدأت تظهر ملامحه كل يوم جديد.. لحظات لتداول النظرات، تختصر الكثير من الآهات، وتختزل المسافات، إلى القلوب، التي مسها الجماد. كانت تغوص مع ذلك الغريب، كل يوم، في هذه اللحظات التي تخدش الإحساس بليونة، ترسم الكثير من الأحلام بألوان قوس قزح. حملت ممسحة ومسحت كل الحزن الذي كان يخفي ملامح جمالها، وغسلت شوائب الحزن الذي لا يزال متعلقا بمحياها، من نبع الحب، الذي بدأ يسري بداخلها، ويسقي كل زهرة ذبلت أو غصن مال من الجفاء، نسيت أنها عرجاء، ومشت فوق خيط رفيع برشاقة، مثل فتاة السرك والعشاق يصفقون لها، بقدمين جميلتين مكتنزتين.. استطاع هذا الغريب ولو من بعيد، أن يلامس نهاية شعر وشفتي تلك الأنثى التي تحملها بداخلها، أن يداعب كل شيء يحرك فيها معنى الحياة، أحست بتلك النظرات من خلف السياج في الشارع العام، بمثابة عيد ميلادها الثاني، فعيد ميلادها لم تحتفل به أبدا. هكذا الحياة ليس بالضرورة أن يكون عيد ميلادك في هذه الحياة هو ذلك الذي وصلت فيه إلى عالم الوجود، بل ذلك التاريخ الذي ينشيك فرحا حتى الثمالة، ربما ملاقاة حبيب، أو فراق خليل كان يزاحم كل شيء جميل فيك، هي

المناسبة الأقرب إلى قلبك، لذا، فهي عيد ميلادك الثاني في الحياة، لا تدع يومها يمر مرور الكرام، بل اجعل فيه سنة، تتذكرها به.

***

كان رحيل زوجة أبيها ورجوعها مطرودة إلى أهلها مثل مشعوذة يهاب لعنتها، بمثابة فتح باب نار الجحيم عليها، فلم يبق فقط ذلك الأب القاسي، بل أصبح القاسي جدا، ويحمّلها كل أعباء البيت والرعي، وحمل الحطب، وإيصال الكلإ إلى الأغنام والبقر في الإسطبل، رغم نحافة جسدها وضعف حيلتها، إلا أنه لم يرحمها ولم يشفق عليها، وفوق هذا، كان لا يترك أخاها ليساعدها وهو أكبر منها، ويأمره فقط بتتبع الأغنام في الغابة في أيامه المخصصة له، فقد قسم أيام الأسبوع نصفين، نصف لها ونصف لأخيها. بدأت شجاعتها في هذا العالم تذوب وتتلاشى، ووصلت إلى مرحلة تعب الحياة، رغم صغر سنها، أصبحت تذهب إلى رعي الغنم، وهي تبكي وحدتها، وقسوة والدها، ولا يوجد من يواسيها في هذا الضياع رحلت زوجة أبيها، التي كانت بمثابة سند لها ولو لمدة قصيرة، لأنها أحست بعمر جديد يسري في عروقها بعد تلك اللحظات التي عاشتها برفقتها، لكن بطنها لم ترحمها وحملت بنتا وأبغض شيء عند والدها هو الأنثى، لا يريد أن تتكرر أنثى أخرى في حياته، لا يريد أن يرسم على محيا عائلته اسم أنثى أخرى ليضيف إلى العار الأول عارا آخر فيصبح محل سخرية بين أهل الدشرة، كان يعتقد أن رزقه بأنثى أخرى هو بمثابة لعنة من السماء، لهذا كان غالبا ما يردد مع

أصدقائه في الدشرة: ماذا فعلت حتى يسقط كل هذا العار علي من السماء؟ "علاش حرقت الجوامع".. هكذا كان ينظر إلى الأنثى، كأنها كائن غريب وعار وعيب لمن ولدت عنده، فأكيد سوف تبقى وصمة سوداء على جبينه بين كل الآباء، وسوف يبقى يتهرب من أهله من سوء ما بشر به.. كانت تدفع فاتورة لقب أنثى كل يوم، حتى وإن كانت غير قادرة على سدادها، لكنها مجبرة، لم تكن مخيرة في لقب أنثى، لكنها مخيرة بين النشاط أو الضرب والإهمال، فلم يكن يتردد والدها في الكثير من الأحيان في غلق الأبواب عليها، فتكون مخيرة بين المبيت عند أحد أعمامها أو رفقة البهائم، وفي الغالب، كانت تفضل النوم فوق كلإ الأغنام والأبقار، وما إن ينادي الديك إلى طلوع النهار حتى تحمل العصا وتتجه إلى الرعي، رفقة بعض أهل الدشرة، الذين توقفوا عن التعرض لها والتحرش بها فجأة.. لم تكن تدري السبب لكنها عرفت بعدما التقت بذلك الشيخ الغريب، الذي كان يراقبها في ما مضى، وهي تطفو فوق ظهر والدتها في الوادي. ذلك الغريب الذي بقي لغزا بين أهل الدشرة، فلم يتصادف معه أحد، لكنه حينما أراد الظهور، حاصر الأولاد الرعاة، الذين كانوا يغازلون ربيعة في الغابة، ويحاولون الاعتداء عليها دون ملل، وحذرهم من التعرض لها، وإلا سوف يعلق كل واحد منهم من عرقوبه في شجرة عالية لم يقترب إليها أحد منذ تلك الحادثة، إلا بحسن صنيع، أو التودد إليها في حدود.

***

اقترب منها وهي لاهية منهمكة في قطع الأغصان بكل قواها كأنها تعبر عن حالتها، وتريد التخفيف عبر هذه الضربات القوية بالفأس، وحين انتبهت وجدته يقف عندها ففزعت وهربت، وهي تصيح. هرول الرعاة إليها، وحينما رأوا الشخص الذي فزعت منه طلبوا منها عدم الخوف، فذلك الرجل الغريب الذي يسكن الغابة كان يراقبهم من زمان، تسمرت في مكانها، وهي تنظر دون كلام طلب منها الاقتراب والجلوس إلى أقرب شجرة، لكنها بقيت فزعة فلم يسبق لها أن التقت بشخص غريب في الغابة، منذ أن أصبحت راعية غنم. وتذكرت في هذه اللحظة، ما كان يقص عليها مما يلاقيه الرعاة في وحشة الغاب، شخص يحمل ملامح مخيفة لحية طويلة انقسمت شعيراتها بين الأبيض والأسود تظهر من بعيد رمادية اللون، وغير مستوية، كأنها زرعت عشوائيا، فغطت مكانا وتركت مكانا آخر، يحمل بيده اليمنى عصا غليظة من شجر البلوط، وفي يديه الأخرى كتابا، يكتسي قندورة رمادية اللون وعمامة بيضاء على خصره حزام من رصاص، ويتبعه كلب أبيض كبير، ارتمى على أطرافه الأربعة، ومدد رأسه إلى الأمام، كأنه يستعد للنوم. انصرف بقية الرعاة، أما ربيعة، فجلست في الموضع الذي هربت إليه، بعيدة قليلا عن هذا الرجل الغريب، الذي طلب منها عدم الخوف، ثم ابتسم حتى ظهرت بعض أسنانه التي تقاوم الاصفرار، ثم قال لها: سبحان من سخر وأرسل هذه الحياة، اليوم الأول الذي رأيتك فيه، كنت قطعة صغيرة من لحم، لا تظهر ملامحك بعد، مربوطة بقطعة

قماش، على ظهر أمك، رحمها الله وهي تصارع الموت من أجل النجاة، أذكر جيدا تلك الكلمات التي كانت ترددها: "خرجو الطفلة.. خلوني أنا"، ما زالت ترن في أذني إلى حد الساعة، كان همها وهي بين مخالب الهلاك، نجاتك قبلها، وهي غريزة الأمهات، حين حملتها ووضعتها بين النسوة اللواتي كن يصحن من هول الحادثة وابتعدت، كانت ترتجف من شدة البرد وقد كستها طبقات من الجليد، التي كانت تسبح فيها في الوادي مازلت أذكر كيف كانت تتحسس ملامحك وتقبلك في كل مكان وتحمد الله على النجاة، انصرفت ولم أعلم بوفاتها، إلا بعد الأيام من بعض الرعاة. تذكرت ربيعة في هذه اللحظة، كل كلمات الأذى من شتم ولعن، من والدها طوال الوقت، عرفت حينها أنها ورثت عن والدتها هذا الغضب، وهي اليوم تعاقب بأثر رجعي، تذكرت بعض قصص النسوة، اللواتي تربت في ديارهن، وأغلبهن أجمعن على أنها أرادت الانتحار في ذلك اليوم، هروبا من بطش زوجها، وهي القصة التي نمت وتربت معها، على أن والدتها ضعفت إلى درجة قتل نفسها رفقة ابنتها.. لكن هذا الغريب نقل إليها حقيقة أخرى لم يتوقف عن الحديث عن كفاح والدتها، فأغلب الأحيان كان يراها، تصارع قسوة المناخ، سواء في الشتاء أم الصيف، أحست بأن والدها كان يعاملها نفس معاملتها اليوم، هرب من كل مسؤولياته، ورماها على زوجته، واليوم ينقلها إلى بنته، أي نوع من الرجال هو.. هو يمقت الأنثى، لا يكرهها فقط، لكن، ما الشيء الذي تغير من زوجته الثانية، قبل أن تبشره ببنت،

لماذا كان غارقا في حضنها، مثل طفل صغير، لا يجادلها ولا يصيح عليها، ولم يعنفها إطلاقا، ولا يرفض لها طلبا، بل وينفذ أوامرها، حتى ولو كانت لا تعجبه، على غرار اهتمامها بها، حين كانت تدافع عنها وتحوّل معها إلى والد صالح يهتم ببنته الصغيرة، ويعطف عليها وحين أرسلها إلى أهلها وهي تحمل بنتا أخرى بين يديها، انقلب عليها. انصرفت بعد هذا اللقاء، الذي لم يكن في الحسبان، ورجعت إلى بيت أبيها، وهي تجر قدميها في الحذاء البلاستكي، وفكرها عند والدتها، وما قصه عليها هذا الشخص الغريب.

لاحظ والدها الكثير من التغيرات في تصرفاتها معه، أصبحت لا تهابه ولا تخشاه، بل في بعض الأحيان، تعصي أوامره، رغم تهديده المتواصل لها، كمن وصل إلى مرحلة أصبح فيها لا يبالي بالنتائج المهم هو رضاه عن نفسه بما يقوم به، وهي حال ربيعة، أو العرجاء في نظر أبيها.. وتبقى عيناها معلقتين إلى الغابة في أغلب اللحظات كمن نسي شيئا هناك، أو شاهد شيئا غريبا ينتظره، غلب على يومياتها السكوت والصمت وكذا الشرود، حتى ظن والدها أن بها مسا، أتت به من الغابة، ولعل ما زاد استغرابه أنها المرة الأولى التي رافقها بعينيه وهي تزور المقبرة، وتقف عند قبر أمها تبكي بكاء شهقت فيه، وسمعها كل من كان حولها، أراد أن يستفسر عن هذا الأمر معها، لكنها أصبحت لا ترد عليه، ولا تجلس معه، كأنها فجأة كرهت تلك الإهانات المتكررة، وطلبت منه التوقف عنها بطريقتها حتى أخوها لاحظ هذا التغير عليها، وأراد أن يتودد إليها لأول مرة لكنها رفضته،

أحست بأن والدها هو من طلب منه التقرب إليها ومعرفة حالها، أصبح همها الوحيد أشغال البيت والرعي في أيامها المخصصة لها، استطاعت في هذه المرة أن تجعل لنفسها حيزا لا يدخله أحد، كأنها تحررت نوعا ما من قبضة والدها، الذي لم يع ما حل بها، لم يكن ينتظر رد فعلها معه، بعدما أحكم عليها الوثاق. أحسن في هذه اللحظة بأنه ضعف أمام اللامبالاة من طرف ربيعة وهي الطريقة الوحيدة التي قد تنجح حينما نحس بأننا محاصرون، لأن الطرف الآخر يحس بأنه لا فائدة من شد الوثاق أكثر، في حضرة شخص فقد طعم الحياة، ومن يفقد هذا الطعم تصبح كل الأذواق متشابهة عنده، فتدفعه إلى الاستسلام رغما وكرها لا اختيارا.

***

لم يمل عليها شخص آخر اتخاذ هذا الموقف تجاه أسرتها، لكن رد فعلها كان عفويا، كأنها أحست في لحظة ما، بأنها كانت قاب قوسين من الموت، لكن والدتها تعلقت بحبل الحياة من أجل إنقاذها، أحست في لحظة ما، بأن والدتها تسكن اليوم قبرها، لكن النسوة لا يزلن يتداولن إشاعة انتحارها في ذلك اليوم، في حين كانت بين الحياة والموت وهن حولهن يصرخن، ليس لإنقاذها لكن للومها، كأنهن مقتنعات بأنها تستحق الموت، لأنها أقدمت على هذا الفعل الذي لم تسبقها إليه أنثى من قبل، حتى ولو عرفت الحقيقة متأخرة، لكنها استطاعت أن تعيد رسم ملامح هذا العالم الظالم، عالم يسوده الجهل وأبوها خير مثال، دشرة تركت في هذه الزاوية

المظلمة من الأرض، تمارس فيها طقوس ظلم التقاليد المجحفة، خاصة في حق الأنثى، التي تصارع كل لعنات الرجال، ولا يشفع لها ما تقوم به، جنبا إلى جنب معهم، ومقاسمتها معه هموم الحياة، لكنها تبقى دائما في الحضيض، يسويها الكثير منهم مع البهائم، وللذكر حظ كبير عندهم، والأنثى لاحظ لها معهم.

حينما يمتزج الشوق مع الفضول، والرغبة في الخروج من حياة كانت تملى علينا بكرة وأصيلا، والبحث عن حياة أخرى، تظهر عليها ملامح أفكارنا، وتخاط على مقاسنا، ولا دخل لغيرنا فيها، بل نحن من نصنعها، ننتقل بذلك، من مرحلة عبودية الناس ولو كانوا من الأقربين إلى تحرر أرواحنا، لا سلاسل ولا أغلال التقاليد وجحود العرف، التي كبلت أيدينا منذ زمان، بل نحس بأيدينا كأجنحة الطيور نحلق بها فوق السحاب، نرسم الملامح التي نريدها بأنامل من كل الألوان، نشرب من الكأس التي نختارها، والذوق الذي يروق لنا، لسنا مجبرين على السير في ظل من سبقنا إلى هذا الوجود، لكي يصبح لدينا الاختيار في شق الطريق الذي يليق بنا..

***

حلقت ربيعة في عالم جديد، بأجنحة من العشق والشوق أصبحت تعيش رفقة صاحب النظارة، الوصال الروحي الذي يربطه بها كل يوم، وأصبحت مدمنة على الوقوف في الشرفة تداعب ذلك العصفور الذي كان سببا في بداية تغيير حياتها إلى الأبد، وجدت لأول مرة ذلك الشعور، ذلك الناموس الذي يسيطر على ما

بداخلها، ويحركها بهزات متواصلة، مثل ارتجاج الأرض من تحت الأقدام، شيء ما بداخلها يرغمها على السير نحو الذي أصبحت ملامحه مرآة لها، لكي تضع قلادتها وأقراطها كل صباح تداعب من خلاله ملامحها، وقد تغيرت وأصبحت تحمل جميع الألوان، تدحرج الحزن من محياها، وذاب كما تذوب الثلوج من فوق الجبال، وأصبح مشرقا، زادها لمعان ثغرها، الذي كشف عن فرحة متواصلة مثل طفل صغير لا يعرف معنى الأسى ومعاناة الحياة، لذا، فهو دائم الابتسامة والحركات.. نسيت عبر هذه اللحظات، كل ما عانته في الدشرة، من حملها الحطب وتتبع الأغنام كل صباح، والعودة كل مساء وقد اكتست الدشرة ليلا أسود قاتما، تبقى تصارع البهائم حتى يركن كل إلى مكانه، مثل الأولاد الصغار، ثم تلقي بنفسها على فراش بارد كأنها تنام على التراب، نسيت حملها الحطب بالأطنان على كتفين عاريتين، وقد أدمتهما الأغصان مثل وخز الإبر، لكنها لا تنتبه، حتى ترى الدم يرسم خطوطا على بشرتها البيضاء، لقد حاصر شوقها إلى هذا الغريب الذي يتأملها من بعيد، كل لحظة مؤلمة عاشتها من قبل كما يحاصر الوباء من أجل الشفاء، لقد أشرق في حياتها مثل شمس تشرق على بلد أهلكه الفيضان، أحست بأنها كانت مثل قطعة أرض لا ينبت فيها إلا الأشواك، فأتى هذا الشاب الغريب فبدل ترابها وزرع فيها ورودا من كل الأنواع والألوان، كانت في ما مضى مثل صحراء جرداء مسها الجفاف، لكن المطر رحمها وأشفق على حالها، وسقاها حتى ثملت وطارت منها ينابيع

تلامس السحاب.. هكذا الاهتمام، يصنع منا أشخاصا آخرين، لا نحتاج الحب بقدر الاهتمام، الاهتمام دلالة على أنك موجود في صدر حتى من كان عنك غريبا، فقد نعيش الإهمال من أناس نعتقد أنهم أقرب الناس إلينا، لكنهم في الحقيقة أبعدهم عنا بشرا بعد طول اللامبالاة..

***

لاحظت وردية هذا التطور في حياة ربيعة، كأنها أخذت جرعة زائدة في هذه الحياة، لم تبق تلك المرأة التي تقف كثيرا عند رأس الماضي، وهو متمدد أمامها، لكي تبكي على أطلاله، وتنظر إليه نظرة حزن بعد تلك الخدوش التي تركها على جدران قلبها وروحها، بل انتبهت إلى المستقبل الذي يقف عند الباب، مبتسما يحمل بين يديه ورود الأمل، ويشع نورا ينعكس على محياها الجميل، تعيش حاضرها على أوتار الفرح التي عدلتها على توقيت صاحب النظارة الشمسية، الذي يقضي يومه يراقبها من بعد الظهيرة، إلى أن يبدأ الليل يداعب القمم، وهو خجل من قطف ما تبقى من شعاع الشمس، لكي يزرع الظلام.

***

استمالها ذلك الغريب الذي قابلها في الغابة، وأصبحت تجلس إليه في أغلب الوقت، تراقبه وهو يشتغل على قطع أغصان الأشجار، وكلما تعب وكل من القطع، جلس يقص عليها بعض أخبار من سبقوها إلى هذه الحياة، عن كرم جدها، الذي كان يشق

الثلوج الغزيرة، من أجل الوصول إليه والسؤال عن أحواله، بعد ما حل به، حينما فقد عائلته في يوم عاصف، ولم يصل إليهم، إلا وقد سوت الثلوج بيته من الحطب بالأرض، لم يسقط الثلج بهذا الكم منذ سنوات، ماتت الكثير من البهائم، وحتى الخنازير بعدما قطع عليها الكلأ، وبقيت أسابيع تراقب الموت في جحورها، وبعدما رفع الله عن الأرض هذا البلاء، وذابت الثلوج بعدما اشتغل عليه حر الشمس لأيام طويلة، وجدت الكثير من الحيوانات قد هلكت.. عام غيث فيه الناس، وبقي في الأذهان، ولم يحصل قبله ولا بعده مثله.
كانت ربيعة تجلس صامتة شاردة الذهن في هذا الغريب الذي يحمل بين طيات تجاعيد جبهته آثار فوضى الحياة، كان يحمل في قصصه كل ألوان الأسى، كان لا يقص قصة إلا وتزينها منه دمعة أو شهقة صامتة، كانت تراقبها وهو يتخفى لكي لا تكشف ضعفه، فبكاء الرجال حرام في اعتقادهم، بالرغم من أنه كان يبعثر تركيزها عليه، بالضحكات التي تكشف ما تبقى من أسنانه، إلا أن حزنه كان ينادي وصوته مسموع من بعيد يسترسل في كلامه وحديثه، ويرسم موسيقى من خلال الكلمات حتى تعتقد أنه لا يتنفس، أو مثل شريط مسجل، كأن الفواصل ذابت بين جمله، أو يحفظ أسطوانة حياته عن ظهر قلب، كمن يريدها أن تخرج دفعة واحدة لكي يرتاح، لأنها تضيق عليه صدره أخذت من مجموع قصصه، أن الحياة رغم قسوتها، فإنها تقسو لكي تعتدل تجربتك في الحياة، قاسية حتى نعتقد أنها ظالمة تقسو لتعلمك الشدائد من أجل الأيام العصيبة،

تمر عبر خنادق الضيق، لكي تطلع عليك شمس اليسر في النهاية، لكي لا تنسى أنك حين تكون غارقا في ملذاتها، هناك من هو غارق في قسوتها ووحشتها، تشفي صدرك من الأنانية التي تغلغلت في قلب كل البشر.

***

أصبح هذا الغريب بالنسبة إليها كتابا مفتوحا على الحياة تأخذ من ينبوع التجربة دون كلل، وتتعلم الدروس سمعا، اتسعت نظرتها إلى الحياة، وتعلمت ما لم تتعلمه في تلك السنوات القليلة في المدرسة، أعطاها الدواء الشافي لكل ضرر، ومرر إليها اجتهاداته في هذه الدنيا، لتأخذ منها ما تشاء دون مقابل، كانت تتلهف إلى لقياه كل يوم، وتشتاق إليه حين لا تذهب للرعي، تمر عليها الساعات طويلة، ويشتاق سمعها إلى سماع المزيد، لكن حينما انكشف أمرها أنها تجالس هذا الغريب الهرم، حل بها ما يحل بالسجين، حين يقع في يد العدو من أجل الإفشاء بالأسرار والمعلومات، واعتبر والدها أن هذا الفعل هو بمثابة الطرق على باب الشرف من أجل دخول الخيانة، لقد انتفض لها ليس حبا فيها بل طمعا في الانتقام من هذا الغريب، لذا باتت معلقة من عرقوبها، تتألم وقد أدمى خيط البلاستيك التي ربطت به قدميها، وحين أصبح الصبح، رماها والدها في غرفة وأغلق عليها، وحمل البندقية ورحل.

اجتمع أهل الدشرة حوله، ألقى عليهم خطبة مليئة بالحقد بصوت مرتفع، سمعها كل بعيد،كمن يريد إعلان الحرب، وطلب ممن يغار على شرفه أن يتبعه إلى الغاب لكي يقضي على هذا الغريب، الذي أصبح يجلس إلى الأولاد الصغار، وربما يتجسس على النساء، غير أن أغلبهم تردد في اللحاق به، ووجد نفسه يتجه إلى الغابة لوحده، واعتبر أن قومه خذلوه، كمن يرتد يوم الزحف لكنه لم يبال، وتابع طريقه نحو المجهول لملاقاة ذلك الغريب، وولده محمد يتبعه.

***

سار سيرا سريعا، يقفز بين الأحجار والنبتات، يخطو خطوات طويلة، يطوي بها المسافة بينه وبين ذلك الغريب، كان ولده محمد من بعده، يقفز مرة ويسقط مرة أخرى، وهو يدعوه إلى الإسراع ولا يبالي، كان يتعلق بالنباتات حتى أدمى أصابعه، لكن عينيه تبقيان معلقتين على والده الذي يسارع الخطوات، كأنه يسابق الريح مستعجلا للقتل.. حين غاص في الغابة بين الأشجار في هدوء مخيف، بدأ ينادي بصوت مرتفع على الشيخ الغريب بالخروج كمن يريد المبارزة، لم يسمع ضجيجا ولا جوابا لندائه، التفت من خلفه فلم ير محمد قد وصل إليه، سمع خشخشة بين الأشجار فاستعد للقتال، وهو يتفنن في قول الكلام البذيء، مثل قطاع الطرق، لكن اثنين من الخنازير فاجآه ولم يستطع الفرار، وانقلب أمامهما

فتهجما عليه بأنيابهما، فصاح من شدة الألم، أراد أن يفر لكن بعد فوات الأوان، ارتمى على غصن شجرة، وبقي معلقا في السماء، يطلب النجاة.. وقعت عيناه على ولده وقد اقترب من المكان، فناداه بأعلى صوت بالرجوع، فرجع محمد مهرولا نحو الدشرة، يحمل حذاءه في يديه.. في اللحظة التي أدرك أنه قاب قوسين من الهلاك، ظهر أمامه الرجل الغريب، يحمل بندقية صيد، أشار عليه بعدم النزول من فوق الشجرة حتى يعود إليه سمع بعدها طلقتين متتاليتين، ونباح الكلب الذي لا يفارقه، بعد بضع دقائق رجع إليه الغريب يبتسم، طلب منه النزول، لكن الألم أبطأه، أصيب إصابة بليغة في بطنه من جراء الطعن، تمدد قرب رجلي الرجل الذي تحرك مسرعا، وعاد بعد غياب قصير ومعه حصان أسود مسجى، حمله فوق ظهره وانطلق إلى الدشرة.. تقاطع ببعض أهل الدشرة، وقد شمروا لإنقاذ "علي"، اندهشوا حين رأوا الغريب يحمله على حصانه، لم يعرفوا ما حدث، إلا بعدما عادوا إلى ديارهم حاملين علي، وأثر الدماء تغطي ملابسه، قص عليهم القصة الكاملة التي لم يكد يكملها حتى قذف الدم من فمه التفت الجالسون إليه إلى بعضهم كإشارة عن عمق جرحه، وربما هو على مقربة من الوفاة.. كانت ربيعة تراقبه من بعيد كالعادة وقد تبللت وجنتاها بدموعها، وهي ترى رجلا انكسر كبرياؤه وهو اليوم يحتضر، كان يعلو بصوته في الدشرة، ويزأر مثل حيوان مفترس، تتحرك الأشياء من حوله من قوة صوته، لكنه اليوم يتوسد الحائط مثل امرأة حبلى، لا يستطيع

الكلام، يحوم الرجال من حوله ثم يتفرقون كل إلى شغله حتى إخوته، كأنه انتهى من هذا العالم ولا فائدة للجلوس معه، لأنه لا أحد أصبح يبالي بحاله حتى ابنه محمد، أصبح لا يقترب إليه إلا نادرا، واستغل فرصة ركونه إلى فراش المرض، في الخروج دون عودة إلى البيت، يقضي اليوم كله في الغابة رفقة أقرانه، وحين يحل المساء يتسرب إلى زاوية لينام. أعادت هذه الحادثة ترتيب العلاقات في البيت وأصبحت ربيعة الأقرب إليه، بالرغم من كونه طريح الفراش، إلا أنها مازالت تهابه، كما يقول المثل، حتى ولو كان ميتا فسيبقى يهاب، لكنها مع مرور الأيام أحست بعجزه الحقيقي، حتى إنه لا يستطيع أن يذهب إلى قضاء حاجته وحده، كانت له المرشدة والطبيبة، تداويه بالأعشاب وبكل ما تشير عليها به بعض النسوة لكن حالته لم تستقر، ونحف جسده، نتيجة لانقطاعه عن الأكل. انقطعت ربيعة عن كل شؤون البيت الأخرى، وتفرغت إلى والدها الذي أصبح يقاوم الموت، بالرغم من كونه متعلقا بالحياة، تجلس إليه طوال الوقت، تمسح عرقه الذي يتصبب من جبهته، وهو يرافقها بعينيه الشاخصتين، كأنه يريد أن يعتذر إليها، كأنه مندهش لمعاملتها معه، ألم يكن قبل أيام خارجا لقتل من جلست إليه في الغابة، لكنه أنقذه من موت محتم، وهي اليوم بعد كل معاناتها معه، أصبحت الوحيدة القادرة على حمل ضعفه وعجزه.. غريبة هي الحياة، من كان يعتقد أن علي ذلك الجبار الذي كان

أقسى من القسوة نفسها، هو اليوم يحتضر ولا أحد يبالي به، أصبح أخف من أعجاز نخل يتوسد التراب.

***

هزل حتى أصبح مثل غصن جف من الماء، أصبح لا يستطيع الكلام، لا يحرك إلا عينيه حين يريد أن يقضي حاجته، كانت ربيعة تقضي اليوم كله وهي إلى جانبه، لا تخرج من البيت إلا نادرا. عم صمت رهيب في هذا البيت، حتى أصبح موحشا، بعدما كان يغرق في الصياح الذي لا ينقطع، قلت فيه الحركة، إلا من خطوات ربيعة المتثاقلة، وهي تجر رجلها العرجاء.. كان يراقبها طوال الوقت، وهي منغمسة في شغلها، أو في مسح ما تبقى من الفتات على ملابسه، كانت تنظف لحيته وتعدلها كلما أصبحت كثيفة، تغرق وجهه بالصابون، ثم تحمل شفرة حادة وتميط عنه أذى هذه الشعيرات من محياه. أترى هل خاف يوما وهي تداعب رقبته بهذه الشفرة الحادة، ماذا لو تذكرت فجأة معاملته لها فتنحره من الوريد إلى الوريد، هل كان يرضى بهذا العقاب، هل يستحق لكي يكفر عن كل ما اقترفه في حقها وحق أمها من قبلها.. لكن، كان يحدث العكس كانت تداعب وجهه بلطف، كأنه طفل صغير، تذهب وتأتي كأنها تداعب أوتار عود أو غيتار، حتى إنها حينما ترى ملامحه انكمشت من الألم تطلب الاعتذار، كانت ترى في عينيه ذلك التوسل الذي يصبح في بعض الأحيان مهينا، تعرف خبايا هذه النظرة، هو يعترف بذنبه في صمت، كأنه يطلب الغفران، لكنه لا يستطيع أن يبوح به،

يشدها في بعض الأوقات من فستانها، الذي احترقت جوانبه بنار الحطب من الطهي وتحضير الأكل، تلتفت إليه وتبتسم ابتسامة، لا تحمل بداخلها ضغينة له، كانت تحرك رأسها لتخبره بأنها تعرف ما يريد أن يقول تدمع عيناه في بعض الأحيان، فتلملمها هي في قطعة قماش وتدفعها بيده، هكذا كانت تقضي أيامها معه، بالرغم من أنه كان السباق في تلقيبها بالعرجاء، اللقب الذي ترك لها خدشا عميقا في نفسها، وكذا تلك الضربات الموجعة التي لا تزال آثارها على ظهرها تتكئ على بعضها مثل الأوتار، وعرقوبها الذي لا يزال يسيل دما بعدما ربطها منه كما تربط الشاة، حين عرف أنها تجلس إلى ذلك الغريب، الذي أصبح اليوم بطله، فقد جذبه من تحت أقدام الخنزير قبل أن تفيض روحه. كانت تقاوم دموعها في حضرته، ولا تتخلى عن ابتسامتها مثل فصل الربيع الذي لا يتخلى عن فراشاته وزهوره، إلا أنها حين تخلو بنفسها، تسقي الأرض دموعا، حتى ترتسم آثارها على وجنتيها الصغيرتين، هل كانت تبكيه وما حل بهذا الذي لم يعترف بها يوما ابنتا له، هل كانت تود لو أنه كان أبا حنونا وعطوفا مثل كل الآباء، وهي اليوم تخدمه منذ زمان، لماذا اختار أن يكون ذلك الوالد القاسي، هل هو الكبرياء الذي ينهار اليوم ويتساقط مثل أحجار الدومينو تباعا، حين أصبح يتوسد الأرض ويتلوى في فراشه من الألم، كما تتلوى الأفعى في جحرها، أم إن العادات والتقاليد في هذه الدشرة أقوى من الدين والأخلاق، لذا، لا يمكن أن يحول عنها ويبقى مصمما على جبروت لا ينتهي، حتى

يرمى عليه التراب، ويرحل معه ذلك الكم الهائل من البغض والضغينة لهذا العالم، وقد ظلم أقرب الأقربين إليه، أم إنها كانت تبكي نفسها، في هذا العالم القذر، الذي نشأت فيه، تصارع الجهل والظلام، في عز النهار، كانت تنظر إلى نفسها وقد ذبلت واختفت أنوثتها، كما تختفي الحشرات تحت الأضواء، وهي تعرف أنها لا يمكن أن تسترجع ملامح الأنوثة، في هذه الزاوية من الأرض، التي لا تعترف بالأنثى كإنسان، فكيف تعترف بأنوثتها.

***

فاجأهم ذلك الغريب في صبيحة يوم بارد، بيديه كيس من البلاستيك، ظهر في ما بعد أنه يحمل بداخله بعض طيور السمان والحجل، الذي يكثر في أواخر الشتاء، أحضرها خصيصا لعلي وهو طريح الفراش.. جلس قبالته، وهو ينظر إليه وعلي يحملق فيه دون أن يتكلم. أما ربيعة، فكانت تحوم على الشيخ الغريب مثل نحلة تريد أن تختار الزهرة المناسبة لتخطف منها الرائحة، أو كفراشة في مزرعة تتجول بين الورود. ظهرت ملامح الفرحة على محياها الصغير، فلم تلامس شفتاها بعضهما، وبقي ثغرها مبتسما طوال الوقت، كانت تتحرك طولا وعرضا في البيت، الذي يغرق في رائحة البهائم التي تقاسمهم المبيت فيه، تسأل الشيخ الهرم، مرات عديدة نفس السؤال، وكأنها تريد أن يتكلم فحسب لكي تسمع لحن صوته الذي لم تسمعه منذ أن أصبح والدها طريح الفراش، قص عليهما قصة الخنزيرين اللذين طعنا علي، فقد أرهبهما بالرصاص وأصاب

أحدها، مات بعد بضعة أيام من إصابته. أترى هل كان يعلم أن علي خرج يبحث عنه في ذلك اليوم من أجل مبارزته، والنيل منه انتقاما منه بعدما عرف أنه كان يجالس ربيعة طوال الوقت في الغابة، لكن لو كان كذلك، هل كان يقبل أن يكون بطله وينقذه من تحت أقدام الخنازير، أم إنه كان يعرف لكن تجاوز السوء بالإحسان، ولكي يعطي علي درسا لن ينساه حتى يفارق الحياة عن سوء الاعتقاد، كان بمقدوره أن يتركه ينزف في الغابة دون اهتمام، جزاء لما حاول القيام به، لكنه أنقذه وفوق هذا حمله إلى دشرته فوق حصانه.

***

دخل عليه إخوة "علي" وبعض رجال الدشرة، جلسوا إليه ما يقارب أربع ساعات، تداولوا خلالها الحديث عما يدور في الدشرة وفي الدشور الأخرى القريبة إليها، هذه المناطق التي تغوص في اللامبلاة من يوم إلى آخر، ولم يتغير فيها شيء منذ أن أسس بنيانها، مرت عليها العديد من الأجيال، لكنها كانت تحمل نفس الثقافة والعرف والمواصفات، لا تتغير إلا الوجوه. اعتذر الغريب عن شرب أي شيء أو أكل بعض كسرة الشعير، التي كانت تحضرها ربيعة كل يوم، بالرغم من أنها ليست متقنة، إلا أنها كانت تستطيع أن تجعلها قطعة واحدة، توزعها على إخوتها كل صباح، أو في كل أمسية، حين يعودون من الرعي، لكنها أصرت عليه لشرب القهوة التي حضرتها على عجل، وسط تقاطع نظرات أهل الدشرة، وهذه العلاقة الودية التي تجمع الرجل الغريب بربيعة، فقد بانت ملامح صداقة قديمة

بينهما، في طريقة حديثهما وذلك الاهتمام الزائد منها به، لم يشارك علي هذه الجلسة كما كان في الماضي، فقد كان قائد الجوق في السهرات والجلسات التي لا تنتهي، أما اليوم، فقد أصبح يتابعها بعينيه الشاخصتين اللتين غرقتا في جفنيه،كان يراقب كل واحد من الجلوس وهو يتحدث، يحول نظراته من شخص إلى آخر، ولا يشاركهم الهزل والضحكات.

***

قبل أن ينصرف الغريب، أدخل يديه في كيس من القماش كان يحمله على ظهره، وأخرج كتيبا صغيرا، ومد يديه إلى ربيعة وقدمه إليها، انفجرت عيناها من الفرحة وغمرتها الدموع، فلم يحدث أن قدم لها شخص هدية منذ ولادتها، مدت يدها إليه وهي ترتجف أرادت أن تعرف ما هو، فحرك عينيه باتجاه والدها، وقال لها: ربما والدك يذكر هذا الكتاب.. استغربت: ما علاقة الكتيب بوالدها ثم التفت إليه. بقي ينظر إليها، دون كلام، وهي تعرف أنه لن يحدثها عنه، فقد رحل صوته منذ زمان. رافقته إلى خارج البيت حتى انصرف، وبقيت تراقبه، حتى أصبحت لا تميزه من أشجار الغابة، ثم دخلت إلى البيت.

تذكرت فجأة ذلك الكتيب الذي أهداه إليها الغريب، فسارعت إلى خزانتها الصغيرة وأخذته، وهي تمرر أناملها عليه بلطف وتبتسم، جلست إلى وردية، وهي شاردة الذهن في هذا الكتيب ذي الغلاف الأحمر من الجلد، وهو في الحقيقة مصحف صغير، يعود في

الأساس إلى جدها، أهداه إلى ذلك الشيخ الغريب بعد الذي حل به، بقي سنوات عديدة رفقته، وبالرغم من كونه ذكرى عزيزة عليه، من صديق له، إلا أنه لم يتردد في تقديمه إلى حفيدته، كأنه اعترف بأنها الأولى به، كانت تقلب بعض صفحاته وهي تتمتم بكلمات مسموعة، ووردية تراقبها باهتمام. تذكرت أنها تجالسها فرفعت عينيها إليها وهي تبتسم، أعادت ذلك المصحف الصغير إلى مكانه، ثم استلقت على الأريكة، ووضعت رأسها في حجر وردية كانت كلما اتخذت هذه الوضعية تعرف أنها تود دغدغة مشاعرها، بالحديث عن صاحب النظارة الشمسية، الذي أصبح يراقبها كل يوم.. كانت تغوص في الكلمات وتختار الأطيب منها، كأنها تعرفه منذ زمان، وفي الحقيقة لا تعرف عنه إلا تلك النظارة التي لا تفارقه، ومنه اختارت له لقب صاحب النظارة، تتحدث إلى وردية التي تجعل من شعرها أوتارا، تتماشى موسيقاها مع حلو الكلام وكأنهما تعزفان موسيقى هادئة ترسل ألحانها عبر الهواء إلى ذلك الغريب. تتوقف وردية في بعض الأحيان عن مداعبة شعرها وتحلق بعيدا بأفكارها. كانت ربيعة تراقبها عن قرب، وذهنها معلق في المجهول، تتوقف أناملها، لكنها تحس بنبضات قلبها وهي تدق بالقرب من أذنها، تمازحها ربيعة: ما باله قلبك.. يدق كأنك تذكرت حبيبك، تعيد إفساد شعرها في حركة طفولية كرد فعل منها على قولها، وهما تتبادلان الضحكات.. هكذا كانتا تقضيان أغلب أوقاتهما، فقط حينما يحضر الغريب تنسحب وردية في صمت وتترك ربيعة، تتجاذب أطراف الحديث مع حبيبها..

كان الصمت واضحا بينهما، لكنهما اعتادا على لغة الإشارات، الحاجة أم الاختراع، حاجتهما إلى التواصل وهما بعيدان أجبرتهما على ابتكار لغة تعبر عما يجول بالخواطر، وما تهفو إليه القلوب، يتبادلان الضحك، كما يتبادلان الصمت والانزعاج، كانت مساحتها للحديث أكبر من مساحة، فهي في البيت وهو في الشارع العام، لكن بالرغم من كونهما بعيدين، إلا إنهما كانا يمارسان طقوس الحب ومشاعره، بقي فقط ترجمتها في الواقع. كانت الأيام تمر بينهما تحمل الكثير من الأحاسيس، والشوق والبعد، وفي بعض الأحيان الفراق، لأن ذلك الغريب كان ينقطع في بعض الأحيان عنها حتى كانت تعتقد أنها فقدته، تعيش تلك الأيام على أعصاب وتوتر شديدين، تصل حممهما إلى وردية، التي تتجنب الحديث أو مجادلتها أو حتى الجلوس إليها، حين تراها في هذه الحال.

***

كانت تظن في بعض الأحيان، أنه كان يهجرها عمدا، لكي يعرف صدقها، لكي يدخلها في دوامة التفكير والهيام، هكذا هم الرجال المرأة بالنسبة إليهم مثل الصيد، يجري وراء طريدته في الغابة مئات الخطوات، لكن حينما يمسكها يضعها إلى جانبه دون اهتمام، ثم يلاحق أخرى بنفس الجهد والوقت.. أم إن التواصل معه عبر الشرفة أصبح لا يكفيه، ويطالبها بلقياه، كانت تعتقد أن هذا الهروب منها، هو بمثابة إجبارها على الخروج، للبحث عنه في

الشوارع والطرقات، لكنها لا تستطيع، فلم تلامس قدماها الشارع منذ أن وصلت إلى هذا البيت...

***

بعد صراع طويل مع المرض، حتى جف مثل غصن، أصبح لا يظهر وهو في فراشه، من شدة نحالته وفقدانه لوزنه، انقطع صوته ثم تبعته عيناه، ولم تبق إلا أنفاسه، تذكر كل من يجلس إليه، أنه لا يزال على قيد الحياة، تبيت ربيعة إلى جنبه، تعد الساعات الطوال حتى مطلع الفجر، وكأنها علمت بقرب أجله، ولا تريده أن يرحل من هذا العالم وحيدا، فيكفي أن أمها وجدّتها فارقتا الحياة، ولم يشد أحد على يديهما، وأن يوصلهما إلى باب أجلهما، ولم يشهد أحد على أنفاسهما الأخيرة، في بعض الأحيان تعتبره محظوظا، فرغم كل السوء، الذي وزعه على كل من حوله إلا أنه اليوم وهو طريح الفراش، لا تزال الرفقة إلى جنبه، لكي لا يخرج من هذه الدنيا في وحشة، ويسكن وحشة قبره، كانت كلما تستفيق غالبا في بعض ساعات الليل، تهرول إليه لتتفقده، ربما يكون قد رحل في صمت، خاصة أن أنفاسه كانت تخرج في هدوء كأنها ترسل ما تبقى منها من صدره، تمرر أناملها على محياه، الذي أصبح أسود، وبانت الكثير من التجاعيد عليه منذ أن لازم الفراش، كل في اتجاه، كأنها متخاصمة، تنظر إلى تلك التفاصيل الصغيرة في جسده، التي لم تصل إليها يوما، ولم تداعبها مثل كل الأطفال الصغار، الذين يقضون الساعات وهم على صدور آبائهم يفتشون في كل ملامحهم

دون عياء، بعكسها هي، فلم يحدث معها هذا، ولم تطو المسافة بينه وبينها إلى هذا الحد، حتى أصبح اليوم أمامها منهكة قواه، تستطيع أن تفعل فيه ما تشاء، لكنها كانت تريده أن يرحل في سلام، فلا أثر واضحا لعودته إلى هذا العالم، ولا أمل له في الشفاء، لكن لا ندري ما يخفيه القدر.. كانت تحدث نفسها في السر، حين تتخيله محمولا على أكتاف الرجال إلى المقبرة، كلما تقدم به يوم آخر في الفراش، انطفأ شيء جديد فيه صوته وعيناه وعدم الحركة، حتى أصبح يقضي حاجته في الفراش، تتبعها ربيعة بالماء والصابون وقطعة قماش كل صباح كأنه لا يريد الرحيل دفعة واحدة، بل بالتدريج لكي يطيل البقاء وبقيت روحه متعلقة بالحياة ولا تريد الفراق.

***

ظل على هذه الحال، حتى استفاقت عليه ربيعة وهو جثة هامدة، سافرت الروح إلى السماء، في صمت، وهي لا تدري، كأن القدر راوغها وهي نائمة، وخطف روحه وهو لا يستطيع المقاومة. مات وحيدا، على فراشه، بعدما صارع كل العذاب، من أول يوم وقع فيه تحت أقدام الخنازير، لم يستو بعدها على ساقيه، ولم ير نور الشمس بعدها، ولم يستطع توديع العالم للمرة الأخيرة، ذهب إلى مثواه الأخير، وقد انطفأت بعض حواسه. سُمع بكاء أولاده، فهرول بعض النسوة إليهم، فوجدن علي قد رحل إلى الأبد.

رحل في هدوء، رغم كل الضوضاء التي كان يصنعها في الدشرة رغم جبروته مع أهله، إلا أن الموت هزمه، وأخذه ولم يبال، اجتمع أبناؤه من حوله، بكوا بكاء مودع لا بكاء محبة، لقد أجبرهم على التعايش معه، وليس على حبه كوالد عطوف وحنون يلدغهم فراقه، مثل لدغة الحية التي تؤلم وتترك الأثر، خافوا منه أكثر مما أحبوه، ما تزرعه بين الناس من سلوكات يرجع عليك حينما تسجى إلى قبرك، كان يمكن أن يمزق أولاده الجيوب، ويضربوا الخدود، بعد فراقه، ولا يستطيع الناس أن يحملوه على الأكتاف لتعلق أولاده به، ولا حفار قبره أن يضعوه في قبره، لمقامه عند محبيه كأنهم يريدون منه أن يبقى معهم، وتكفيهم منه صورته لا روحه، غير أن ما حدث مع علي بعد رحيله، كان عكس هذا تماما وقف عند رأسه ولديه بعدما أمرهما أحد أعمامهما، من أجل تقديم العزاء إليهما، حتى ولو لم يكونا يعرفان هذا، ينظران إلى الناس من حولهم، فضولا لا غير، ووالدهما مستلق أمامهما لا يحرك ساكنا. وحين وصل وقت حمله، ذهبا كل في اتجاه، حمل على الأكتاف، بعد النظرة الأخيرة، سارع به من تقدموا إلى حمله كأنهم يريدون أن يلقوه في ظلمة قبره، ثم يعودوا إلى الحياة.. وبعد ساعة من الزمن، انتهوا من مراسم دفنه، ورجع كل إلى حاله. انتهت قصة علي من الوجود، ومزقت صفحته من هذه الحياة، كأنه لم يكن هنا، ولم يمش فوق هذه الأرض. هذه حال الرحيل الأعظم وما يفعله هادم اللذات، بعد أن يأتي على كل ما كان يشغلنا في هذا الوجود، يحملنا من عالم

مادي مليء بالضوضاء، إلى عالم آخر أكثر هدوءا، يبقى بعض من يذكرنا إلى حين، ومهما يكن حبهم وقربهم إلينا، سوف نصبح مع مرور الأيام مجرد ذكرى، تتلاشى بصماتها مثلما يتلاشى الغبار من فوق الأسطح الملساء، يذكروننا في بعض المرات، حينما نكون سكانا جددا في مقابرنا، وبعد سنوات، نصبح قد استوينا مع الأرض، وكأننا كنا جزءا منها منذ زمان..

***

كن ما شئت وافعل ما شئت، فإنك لن تعيش بين الناس طويلا بعد الموت، يعيش فقط من زرع بسمة، من أعان فقيرا، من مسح رأس يتيم، من عاش بين الناس مثل العطار، أينما حل وارتحل، ترك الريح الطيبة.

اختارت النسوة الجلوس إلى ربيعة لمواساتها في فقيدها، الذي لم يظهر عليها أثر رحيله، فقط مثل جسد كان منذ ساعات هنا والآن يسكن بين القبور، لو كان حقا مهتما هو بمن حوله لاهتم به محبوه من بعده، كان ربما دفن إلى جنب زوجته ووالدته، مثلما يوصي كل من طرق باب الممات، يريدون البقاء على اتصال معهم تحت التراب، أحبوهم في الحياة، فيودون أن يستشعروا وجودهم بعد الوفاة، غير أن والدها لم يكن كذلك، فقد اختار له حفار قبره، مكانا بين القبور وحفروا قبره كأنهم يعرفون أنه لا أحد سوف يزوره، رموه رميا عشوائيا وأغلقوا عليه لحده. بكت عليه دموع شفقة، كما نبكي على غريب، بالرغم من أنها قضت إلى جانبه الأيام الأخيرة، إلا أنها لم

تستطع إعادة تشكيله في ذهنها في صورة والدها، عاملته بطيبتها وواجبها نحو والدها، بعدما عاشت معه ذلك الجفاء، القسوة تقتل حرارة القلوب، والإهمال يدفن المشاعر، راقبته عن قرب، مسحت فضلاته في الأيام الأخيرة حلقت لحيته، غسلته كلما ظهرت عليه آثار الوسخ ورائحة العرق اعتبرت هذا واجبا نحو والدها، مهما كانت تصرفاته نحوها، أرادت أن تكون بارة به بينما كان هو عاقا لها، عرفت من خلاله عقوق الوالد لأولاده لأول مرة، سمعت بعض النسوة يتمتمن في جنازته أنه لا يستحق تلك المعاملة من بنته، بعدما عاشت معه كل ذلك الظلم والهوان، وقبلها والدتها، التي ذهبت نتيجة لإهماله لها.

***

اختلف أهل الدشرة بعدها في كيفية التعامل مع هذه العائلة حيث رفض أعمام الأطفال ضمهم إلى عائلاتهم، حتى ولو اقترح بعض كبار الدشرة أن يقسم الأولاد في ما بينهم، غير أنهم رأوا فيهم حملا ثقيلا، لا يمكن إضافته، ويجب التخلص منه، خاصة زوجات أعمامهم، فقد عارضن الفكرة بشدة، حتى ولو لم يكن هذا واضحا أمام الأطفال، غير أن ربيعة تدرك ما تستطيع أن تحيكه بعض النسوة في الخفاء، كمثل تاجر في السوق يعرض السلعة الجيدة، ويدس الفاسدة تحتها، حتى إذا وزن قدم الفاسد على الصالح، هكذا هن نساء أعمامهم، يظهرن الكلام الحسن أمامهم، لكن في الخفاء، يرفضن فكرة تبني ولو فردا واحدا من هذه العائلة، التي

أصبحت مشردة بين عشية وضحاها، بين البيوت، بالرغم من أنهم أبناء أخوهم وليسوا غرباء..

***

عاشت عائلة علي الضياع، وجسده لم يبرد في قبره، كما يقال وظهرت على ملامحهم علامات أطفال يتامى، يحتاجون إلى الرعاية والاهتمام، غير أن ربيعة خففت عنهم التفكير في هذا الأمر واقترحت عليهم الذهاب إلى عند أخوالها.. فكرة قفزت النسوة من أجلها، لأنه الخلاص الأكيد من ربيعة وإخوتها إلى الأبد، بل منهم من بدأت التفكير في كيفية الاستيلاء على بيتهم، وهو الأصل في الحكاية منذ البداية.

***

بعد ثلاثة أيام من اقتراح ربيعة، حضر اثنان من أخوالها، حملا ما تبقى من الأفرشة والأغطية وبعض الأواني التي لا تصلح أغلبها فوق ثلاثة أحصنة واتجها بعائلة علي إلى الجهة الأخرى من الغابة إلى عالم جديد لا يختلف عن عالمهم الذي عاشوا فيه.. عالم لم تره ربيعة ولا إخواتها، فقد حرمهم والدهم زيارة أخوالهم، وأقسم أن من يزورهم لن يعود إليه أبدا، لذا سمعوا عنهم ولم يروهم حتى إنهم لم يحضروا مراسم دفنه هم كذلك، وآخر لقاء كان بينهم لما ماتت أختهم، كانوا يعرفون أنه السبب في كل ما حصل لها، وبعدها أولادها، الذين عاشوا يتامى وهو معهم، لم ينسوا له معاملته السيئة لها طوال حياتها معه، وتذكر أكبرهم أن والده رفض رفضا

قاطعا تزويج ابنته إليه، لأنه كان يعرفه مسبقا، لكن القدر رسم طريقها، ورفعت الأقلام.

كان انتقال ربيعة وإخوتها إلى دشرة أخرى، بمثابة نهاية حياة قديمة وبداية أخرى جديدة، ما بقي هناك هي الأغنام والأبقار بيعت بعد أيام قليلة إلى أعمامها بدراهم معدودات، أرسلت إليهم رفقة خالهم، رأت في معاملة أعمامها لهم، بمثابة استغلال لوالدها، الذي مات في صمت، ولم يكونوا يزورونه إلا نادرا، رفقة بعض أهل الدشرة، حتى وإن تربت في بيوتهم بالتداول في صغرها إلا أنها كانت تعتبر نفسها تربت عند غرباء، فلم تعامل يوما على أنها ابنة العم، أو بنت الأخ.. رفضها وإخوتها كان بمثابة سكين غرست في خصرها، وأدمت ما تبقى من جسدها، وحين بيعت كل تلك البهائم بهذا الثمن، عرفت مكرهم، وكشفت حقيقة سريرتهم لأول مرة عن قرب. والأكيد، سوف يستغلون بيتهم، ولو لربط بهائمهم فيه. كانت كلما تذكرت حالها رفقة إخوتها، ونظرة أعمامهم إليهم وهم محيطون بهم، كأنهم في سوق العبيد، بكت بكاء شديدا، حتى ترسم الدموع خطين كبيرين على وجنتيها.

شعرت ربيعة، في لحظة ما، بأن لعنة أصابتهم، هي وإخوتها أينما حلوا وارتحلوا. فبعد بضعة أيام من التنقل إلى أخوالها سمعت زوجة خالها الذي قرر أن تبقى عنده، تطلب منه ضرورة إيجاد حل لهذه الغريبة، فلا يمكن لفتاة بدأت تظهر ملامح أنوثتها على جسدها، مثل ظهور الزرع فوق الأرض، أن تصنع بخصرها الصغير،

موسيقى يشتهي أولادها سماعها كل يوم، وهم يقفون على أعتاب المراهقة، لا تريد أن تحرك مشاعر أطفالها، ويبيتون يترصدون لها عند الأبواب، ويبحثون عن مشاركتها الفراش، من أجل تحسس جسدها الناعم، لا تريد منهم أن يصنعوا لها فضيحة في عقر دارها، بعدما كانت السبب في تغذية شهوتهم، التي بدأت تلعب بعقولهم وهم صغار، كانت ترى تقاطع نظرات أبنائها على نهديها الصغيرين، وحين تكشف عن بعض ساقيها حتى ولو كان عرج إحداهما ظاهرا للعيان.. تغيرت طباعهم منذ أن حضرت ربيعة إليهم، وأصبحوا يفضلون البقاء في البيت، كمن يترصد لصيد قريب. كانت زوجة خالها تتحدث عنها كأنها تحمل بين يديها فتنة هائجة، سوف ترسلها في البيت ولن يسلم أحد، كأنها قنبلة سوف تنفجر في أي لحظة، وتصيب شظاياها حتى من كان بعيدا.. كانت ربيعة تراقب زوجة خالها، وهي تتحسس الأبواب في الليل وتراقب كل الحركات، كأنها تنتظر موعدا غراميا محرما في بيتها ولن تسمح بذلك. هل وصلت الحال بها إلى أن تظن فيها بنت هوى تبحث عن تجفيف منابع الشهوة، في بيت خالها، كما يبحث العطشان عن المياه في الصحراء القاحلة، أإلى هذا الحد، تصبح المرأة منبوذة مباشرة بعد ظهور أنوثتها في هذه الدشور.. كانت في الكثير من الأحيان تراقبها بعين واحدة من تحت غطائها، وهي تتحسس أولادها في فراشهم، لتتأكد أنهم بعيدون عن مصدر انزعاجها، وهي تلك الفتاة، التي تنام ليس ببعيد عن أبنائها المراهقين، أحست ربيعة في كل يوم جديد، بأن

وجودها أصبح محل شك في البيت، وظهر هذا في معاملة زوجة خالها، وابتعد عنها أولادها بالتدريج، فقد نصحتهم والدتهم بعدم الجلوس إليها كثيرا وكان هذا واضحا، وتحولت بعد فترة قصيرة في هذا البيت مثل بعير أجرب، لا يقترب إليها أحد، وحينما تشتاق إلى الحديث مع أحد، تذهب إلى إخوتها عند أخوالها الآخرين. لم تكن تعتقد أن حياتها التعيسة سوف تستمر حتى ولو غيرت المكان، كانت تظن أن التغيير يأتي بالأشياء الإيجابية في الحياة، لكن ظهر العكس، بل زادت نظرة زوجة خالها الحادة إليها، وأصبحت لا تشاركها الكلام أو الأكل، كأنها أعلنتها عدوة تؤويها في بيتها.. كان خالها يلاطفها في أكثر الأحيان ويسأل عن حالها، لكن الهزيمة واضحة في عينيه، فلا يكاد يكمل الحديث معها، حتى تنادي عليه زوجته من بعيد فيذهب مهرولا، مثل طفل صغير. كان واضحا أن ربيعة لن تكمل رحلتها في الحياة وهي على هذه الحال، فقد هربت من بطش نساء أعمامها، فوقعت في مخالب زوجة خالها.. أي حظ تعيس ولد معها، كانت تتساءل في وحدتها، هل يصبح الفرد منبوذا في هذه الحياة إلى درجة أنه لا يجد سقفا ينام تحته في سلام، من أجل أكل لقمة باردة تبادلها بشغل البيت، كشغالة عند أهله.. بقيت تصارع هذا الإهمال، الذي يزيد من يوم إلى آخر، لعل الأيام تأتي بمخرج لم يكن في الحسبان، فكلما ضاقت الحياة اقترب الفرج، وهي الجملة التي مازالت تحتفظ بها من الشيخ الهرم، الذي تشتاق إليه اليوم، أكثر من أي وقت مضى.

اقترحت عليها وردية مبادرة الخروج من أجل التنزه، ومعرفة هذه القرية الصغيرة عن قرب، وفي نفس الوقت، يمكن أن تؤرخ لبداية علاقة رسمية مع ذلك الشاب، الذي يراقبها كل يوم، إلا في حالات نادرة، حين ينقطع عنها ثم يعود، لكنه يحمل نفس الشوق والترقب، يظهر هذا في ملامحه، حتى ولو كان بعيدا، فالأحاسيس الجميلة تظهر أشعتها على محيانا، وتوهجها يعكس ما بداخلنا من أشواق وحنين، لا يمكن أن نخفيها، لكن ربيعة عارضت الفكرة بطريقة مهذبة، اعتبرت فكرة الخروج والبحث عن رجل غريب في الشارع، بمثابة خدش لأنوثتها، فالخطوة الأولى نحو اللقاء لا تكون إلا من الرجل، مهما كل الحب والشوق الذي تحمله المرأة له، ولا تستوي العلاقة بينهما إلا حينما يكون البادئ هو الرجل، فطبيعة البشرية منذ الأزل كانت مبينة على بحث الذكر عن الأنثى، وليس العكس، وحتى إن غلبتها نفسها أو أحاسيسها وبادرت بهذا البحث فلا يمكن أن تصدح به أمام الملإ، لكن تراقبه عن بعد، حفاظا على طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وكذا حفاظا على أنوثتها..

كانت ربيعة تحدث وردية بهذه الكلام، الذي لم تسمعه من قبل، وهي غارقة في محياها، تتأرجح بين عينيها الصافيتين اللتين تظهر عليهما آثار نشوة الحب، وشفتيها اللتين تمليان عليها أحد قوانين الطبيعة، التي نصت الأعراف والتقاليد منذ الأزل، ليس تحيزا من الطبيعة إلى الأنثى، لكن لرفعة مقامها، ووجب الاهتمام بها من طرف الجنس الذي يعبر عنه أنه خشن، وربما لقب بهذا اللقب

ليكون السد المنيع أمام كل المفسدات، التي تتجرأ على طمس جمالية هذه الأنثى.. لهذا تعتبر سيدة، قبل كل شيء. حين أكملت ربيعة هذه المحاضرة، ضمتها إليها وردية كالعادة، وكلما سمعت منها هذا الكلام غير العادي بالنسبة إليها، الذي لا يمكن أن تقول مثله، تتمنى لو أنها تحمل الكثير من المعارف كحالها، فترد عليها ربيعة بابتسامتها التي لا تكاد تفارق شفتيها، وماذا لو كنت عرجاء، هل كنت تقبلين بهذا النقص الذي يبقى يطاردك منذ الصغر، ويعيرك به القريب قبل البعيد، ويصبح مع مرور الوقت كابوسا يطاردك في المنام.. يسكتان في هذه اللحظة، وكأن كلا منهما تذكرت فجأة أحزانها، وفظاعة هذا العالم الذي جردهما من مذاق الحياة السعيدة. عناقهما الساخن يظهر حبهما لبعضهما كأن كل واحدة منهما تحمل دواء شافيا إلى الأخرى.. لا تكادان تفترقان إلا نادرا، تواصلهما الدائم جعل منهما توأمين من أمين مختلفين، لا يحدث بينهما التنافر، وإن حدث لا يطول، فقط من أجل معرفة قيمة أحدهما عند الأخرى، وجس نبض صبر فراقهما عن بعضهما، وفي الغالب لا يتجاوز نصف يوم، ثم يعودان إلى بعضهما، يحملان شوق كشوق ذلك الذي غاب منذ زمان.

***

للصبر حدود.. غضت الطرف عن الكثير مما يقال حولها، وعن معاملة زوجة خالها لها، وعن مراقبتها الدائمة حتى وهي ذاهبة إلى أقرب مكان مستور بين الأشجار لقضاء حاجتها.. أحست بأنها

محاصرة ليلا نهارا. وهو الأمر الذي لم تعتده من قبل، أهملها والدها، إلى درجة أنه كان يرسلها إلى الغابة وحدها، ولا يكترث لأمرها، واليوم أصبحت تحت الرقابة عند خالها، لا تخطو خطوة إلا أضافتها زوجة خالتها إلى ذاكرة كل يوم.. كانت تتألم في صمت من هذا الوضع، لكن أين المفر؟ الغابة تحاصرها من كل مكان وحتى إن وجدت مسلكا للهروب لكي تريح نفسها وزوجة خالتها من حالها، أين تفر؟ من يدخلها إلى بيته، وهي مثل شرارة نار قد تحرق كل من حولها، في زعم أهل الدشرة، يريدون أن تتخلص من مفاتنها الصغيرة، قبل بلوغ أعراض أخرى، يريدونها أن تقتلع ملامح نضجها، كمن يتخلص من الفواكه الفاسدة، لم يعد الخوف منها مقتصرا على المراهقين فحسب، بل حتى من بعض الرجال الذين لا يؤتمنون في حضرة فتاة ما زالت تنعم بجمالها، وتداعب مفاتنها، التي تزيد كمالا كل يوم، وهذا ما كانت بعض النسوة يتداولنه في جلساتهن، التي لا تنقطع في غياب الرجال، أصبح الهروب من هذا المكان واجبا، وليس اختيارا، ربما افتراش أوراق الأشجار في الغابة بين الذئاب أرحم من قاذورات بعض البشر، خاصة ممن نعتقد أنهم الأقربون إلينا.. لم تلم خالها لأنه لم يستطع الدفاع عنها، وأن يحملها كذكرى عن أخته، ويعلقها على صدره، مثل وسام الشرف.. فبعض الرجال مهزومون منذ الأزل أمام النساء، ونظرة من زوجته أشد عليه من أن يضرب بشيء حاد على رأسه. كانت تلاحظ ملامح الهزيمة عليه وهو يراقبها من بعيد، ربما ندم على أن حملها اليوم إلى

هنا، فلو تركها عند أعمامها، فلا يراها وهي تقهر وهو مشدود اليدين لا يستطيع الدفاع عنها، وهو ربما أرحم لها، وهذا ما يزيد عذابه كل يوم. كانت تحس في نظراته الصامتة كلاما مسموعا يطلب منها الاعتذار، لكنها لا تكترث له، فقد ألفت الجفاء منذ الصغر، ويكفي أن والدها ألصق بها لقب العرجاء وتركها، ولم يعطه القدر وقتا إضافيا لكي يعتذر، بل رحل في صمت إلى الأبد.

***

باتت تترقب حلول الفجر، حزمت بعض ألبستها القديمة، التي تغير لونها مع مرور الوقت، في كيس بلاستيكي، واتخذته وسادة لآخر ليلة تقضيها في بيت خالها.. رأت ضرورة الهرب من جحيم زوجة خالها، التي تطورت عداوتها لها كلما قضت أياما أخرى معها. ووصل الأمر، في بعض الأحيان، إلى تهديدها بالضرب. وأصبحت تلفق لها بعض القصص من خيالها، لكي تؤلب خالها عليها، لكن خالها بقي صامدا، لا يكترث لحالها، و لما توسوس له به زوجته لكن تحيزه كان واضحا إلى زوجته، حين اختار السكوت في حضرة الظلم الذي تعيشه بنت أخته، وهو يعلم ما يحاك عنها في الخفاء وفي صمت من طرف زوجته، تأكدت ربيعة من هزيمة خالها أمام زوجته منذ البداية، فلا يمكن أن يتغير في يوم ما، فلم تشأ أن تحمله ما لا طاقة له، وقررت الابتعاد، بعدما رفض أخوها محمد الفكرة، فقد اعتاد على المكان رفقة أبناء خاله. لم تتوسل إليه ولم تجبره على الهرب معها، فهي تعلم أنه بذرة من أبيه، ونظرته إليها ليست نظرة أخ إلى

أخته، بل نظرة رجل إلى امرأة في الدشرة. لذا، لم تنتظر منه الدعم، ولو أن تطلب منه إيصالها إلى وجهتها ثم يعود أدراجه.

***

حين بدأت الشمس تغازل القمم في استحياء، وبدأ الظلام ينسحب على عجل، وبانت ملامح التضاريس التي تحيط بها حملت الكيس البلاستيكي، وخرجت مسرعة في اتجاه مجهول في الغابة. بعد سيرها بعض كيلومترات، اعتدلت إلى الطريق الذي يؤدي إلى دشرتها القديمة، مسقط رأسها، وحين طلع النهار بانت أمامها الدشرة وهي مستريحة في هذه الزاوية، بدأت الحركة فيها باكرا، وهي عادة أهلها، لكنها بقيت تراقب من بعيد دون الاقتراب. نزلت إلى الوادي الذي يفصل الدشرة عن الغابة، واختفت بين أغصان الدفلى، حتى وصل الرعاة إليها، ففاجأتهم بالخروج أمامهم، ففزع منها أغلبهم. بعد هذه الدعابة، ارتمى إليها بعضهم يسألها عن حالها وما تفعله هنا، في هذا الوقت المبكر، ولما هي بعيدة عن دشرة أخوالها.. وخيل إليهم أنها رجعت إلى بيت أبيها الذي أصبح اليوم مكانا لوضع كلإ الأغنام والأبقار. فمباشرة بعد رحيلها رفقة إخوتها، استولى أعمامها على البيت، وأخذ كل واحد منهم زاوية استغلها في حاجته.. كانت تعرف هذا منذ البداية، وكان هذا واضحا، في إصرار نساء أعمامها على عدم الاهتمام بها وبأخوتها، فيكفي أنهن ربينها حين كانت صغيرة، على حد قول واحدة منهن، فلا يردنها وهي كبيرة.. سارت رفقة الرعاة في الطريق المؤدي إلى الغابة ومكان الرعي، ثم

انفصلت عنهم قبل بلوغ الغابة. لم يسألها أحد عن وجهتها، فقط بقوا يراقبونها حتى غابت عن أنظارهم. سارت بعدها قليلا ثم ارتاحت تحت شجرة كبيرة توسدت الكيس البلاستيكي، ورفعت عينيها إلى السماء، ربما كانت تشتكي حالها وما حل بها منذ ولادتها.. بقيت تراقب بعض العصافير، تقفز فوق الأغصان، حتى غرقت في نوم عميق. وحين استفاقت، وجدت الرجل الغريب يراقبها من قريب، وكلبه إلى جانبه، والحصان مربوط إلى غصن شجرة، مسجى كالعادة، كأنه ينتظر الرحيل. قفزت نحوه، ففتح ذراعيه لها، كأنه كان ينتظر مجيئها منذ زمان. طوقها بذراعيه بقوة، فأحس بخشخشة بكائها بعد هذا العناء، لم يتركها حتى انسحبت من بين ذراعيه، وجلست في أقرب مكان قبالته، تنظر إليه وعيناها لا تزالان تذرفان الدموع.. بقي ينظر إليها، ويراقب دموعها تتساقط مثل حبات عقد تقطع فتناثرت في كل مكان، دموع صافية بللت ثيابها. عم الهدوء بينهما، وكأن كل واحد منهما كان ينتظر الآخر ليفتح الحديث. وبعد هذا السكوت، سألته: كم من الوقت كنت هنا تراقبني وأنا نائمة ضحك ثم رد عليها: منذ أن وصلت إلى تحت الشجرة، حين وضعت الكيس البلاستيكي تحت رأسك ونمت.

_ كم قضيت من الوقت وأنا نائمة؟

_ ساعتين أو أكثر. لم أشأ أن أوقظك. كنت أعرف أنك متعبة فتركتك على حالك حتى تفيقين وحدك.

بعد هذا الحوار القصير، طلب منها النهوض والسير إلى البيت وهي المرة الأولى التي عرفت فيها أن لهذا الغريب بيتا يأوي إليه، بعد ترحاله كل يوم في الغابة، فقد كانت تعتقد أنه يسكن في كهف من كهوف الغابة. مد يده إليها، ولامست أصابعه الخشنة أناملها التي جرحت مرات ومرات، وأصبحت صلبة، سار بها وهو يجذب الحصان، وهي تتمايل على صهوته مثل عروس مسجاة إلى زوجها.

***

قضت مع الرجل الغريب الهرم فترة من الزمن، رفقة زوجته التي أحبتها منذ لقائهما الأول.. عاشت أياما رفقتهما، أحست فيها بنبع الحنان يتدفق من حولها، أكرمها أحسن كرم، نسيت خلالها كل ما عانته من قبل رفقة والدها، ومن بعده أعمامها، وزوجة خالها. ارتسمت مرة أخرى ابتسامتها التي غابت منذ شهور، كما تغيب الشمس في فصل الشتاء. عادت إليها تلك الحيوية المعهودة وأصبحت تحوم في هذا البيت مثل فراشة خرجت من شرنقتها لتوها، تختار في بعض الأيام الذهاب رفقة الشيخ إلى الغابة، تتبعه في كل مكان. عرفت معه الكثير من خبايا الغابة وما يحيط بها أسماء الأشجار والحيوانات، أصبحت تميز كل عصفور من صوته وكل حيوان من شكله، أما الأيام التي تقضيها رفقة الزوجة العجوز، فأغلبها يكون في تعليمها بعض الأكلات التقليدية، مثل طهي الكسرة على نار الحطب، وكسكس البلوط، والطمينة التي تصنع من دقيق القمح.. وغيرها من الأكلات التي لم تعتد عليها من قبل، على الأقل

في الفترة الحالية من عمرها، بحيث كانت تأكل في أغلب وجباتها اللبن والزبدة، وكذا البطاطا المقلية، وتغلية القمح وطهي بعض الحشائش، وهو ما يعرف عند أهل الدشور بـ"حربيط"، الذي يكون في الغالب مزيجا بين "العيش" وبعض النباتات التي تتتبعها النسوة في الحقول، يقال إنه مفيد جدا خاصة للمرأة الحامل وكذا المرضعة. لكن مع العجوز تعلمت أطعمة جديدة، تكون في الغالب من الخضار، وكل ما تزرعه هذه العجوز أمام بيتها، من بصل وثوم، وبطاطا، بالإضافة إلى لحوم الأرانب البرية، والطيور، على غرار السمان وكذا الحجل، التي كان يأتي بها الشيخ من الغابة، تقريبا كل يوم، فلا تخلو مائدة الغداء أو العشاء من مثل هذه الطيور، التي تصبح في الشتاء سهلة الصيد، وفي الصيف تكثر كذلك، يستطيع اللحاق بها في كل مكان.

... استطاعت ربيعة في هذا المكان أن تعيش عيشة فتاة مدللة بالرغم من كونها غريبة عن الديار، يلبى لها كل طلب من مجرد التلميح، تأكل وتشرب وتلهو، وكأن طفولتها رجعت إليها في هذه السن، التي تقف اليوم على سن البلوغ، بلوغ أزعج الكثير وشردت من أجله، هربت به من بيت خالها، وهامت في الغابة بحثا عن هذا الغريب، الذي أحست بحنانه وطيبته من أول جلسة لها معه في الغابة، حين حدثها عن حقيقة والدتها، وبعدها زيارته إلى أبيها الذي خرج بحثا عنه ليقتله لكنه أنقذه على الأقل من الموت تحت أقدام الخنازير، حتى وإن مات بعدها من رفسها له بعد تلك المعاناة، كانت

تتردد في ذكر هذا للشيخ، عن ذلك اليوم الذي علقها والدها من عرقوبها بعدما اكتشف أنها تجالس ذلك الغريب في الغابة، حين وصله الخبر مع الرعاة الذين انتقموا منها ومنه بعد تهديده لهم بعدم التعرض لها مرة أخرى، وأنه خرج بحثا عنه ليقتله، لكن اليوم الذي قررت فيه البوح بهذا السر، ابتسم وأقر لها بأنه كان يعرف ما سبب وجود والدها ذلك اليوم في ذلك المكان، وأنه كان يراقبه من بعيد، وأبى الخروج إليه، لأنه لم يشأ التبارز معه، حتى حدث ما حدث.. تفاجأت ربيعة من طريقة تعامله معها ومع والدها، فكيف يمكن أن تنقذ من أراد قتلك واليوم بنته تسكن بيتك، غير أنه كان يردد عليها دائما، أن الكثير من الناس يموتون بسبب الشر الذي يحملونه في صدورهم الحياة قصيرة فلا يمكن للواحد منا أن يقضيها في تتبع العداوة مع القريب والبعيد، الحياة لا تستحق كل هذا العناء.. لذا، وجب على كل واحد منا أن يعيشها بسلام مع نفسه ومع من يحيطون به بعيدا عن الحقد والكراهية، يموت الناس من حولنا وتتساقط أرواحهم كما تتساقط أوراق الخريف، وحتما سوف نكون في يوم من الأيام، الرقم الموالي، فيجب علينا أن نستعد ليوم الرحيل.

تذكرت في هذه اللحظة من حديث هذا الغريب، كل لحظات الأسى والمعاناة التي عاشتها مع والدها، لكنها نسيتها في أول لحظة للسعادة في هذا البيت، أحست من خلالها بأن الحياة تستمر مهما حدث، ودوام الحال من المحال. زرع هذا الرجل في نفسها طمأنينة

لم تعشها من قبل، وانشرح صدرها لهذه الحياة، وتغير طعمها من طعم مر المذاق إلى حلو يستحق العناء.

***

لم يخرج خالها بحثا عنها ولو في محيط الغابة فحسب، بقي يردد أنها سوف تتجه، لا محالة، إلى الدشرة مسقط رأسها، فلا مكان لها غيره، غير أنه ومهما أخفى الأمر أمام زوجته أو إخوته الذين عاتبوه على طردها بهذه الطريقة، فقد كان هربها من عنده بمثابة حمل ثقيل وضعه من فوق ظهره، لقد استراح من نظرات زوجته وهي تعاتبه في صمت، وتعب من كل المحاولات البائسة التي كانت تحيكها من أجل الخلاص منها، وعن كل القصص الكاذبة التي كانت تفتريها لكي تحرك فيه نبرة العداء لبنت أخته، ويحملها ويرميها خارج البيت، لكنه أصر على النظر من بعيد، لقد تحمل طعن زوجته لشرف بنت أخته وهي تدس في أذنه في فراشهما، أن بعض ذكور الدشرة يتهامسون معها من أجل موعد سوف ينتهي بفضيحة قد تبقى وصمة عار في جبينه، لكنه كان يعرف أنها مجرد اتهامات باطلة، ولن يحدث هذا مع ربيعة حتى ولو اجتمع ذكور القوم كلهم من حولها، لقد انتهى من كل هذا، وهربها لوحدها كان كمن أراحه من حبل المشنقة، ودعا الله أن تكون في أمان فحسب. رغم هربها من بيت خالها بعد هذه المعاناة لشهور، إلا أن زوجة خالها لم تتركها في حالها، فقد كانت تقص على النساء الأخريات، طريقة تجولها في البيت وهي تغازل أولادها، وكذا ملاطفتها لهم، حتى إنهم أصبحوا لا

يخرجون إلا نادرا، يبقون معها بعدما نصبت لهم فخ مفاتنها وتركتهم معلقين إليها طوال الوقت كما أنها منعتها في الكثير من المرات من الخروج وحدها، بعدما لاحظت حديثها بالإشارات مع شاب يكبرها سنا، كان يريد مواعدتها، كانت كلما قصت عليهن هذه الأحاديث الباطلة تشخص عيونهن، بل ويرين أنها تأخرت في طردها من بيتها، وكان واجبا عليها رميها من يدها في أول يوم لاحظت عليها فيه هذه التصرفات الطائشة. كانت هذه الأكاذيب التي زرعتها زوجة خالها في شرف ربيعة، بمثابة عذر لها لكي لا توجه إليها أصابع الاتهام بعد هربها من بيتها، بل تضامن معها النسوة، واعتبرنها منقذة العائلة من فضيحة كانت تطبخ في صمت، لولا حذرها الدائم منها وتوجنها بطلة العائلة كلها.

ألفت العيش في بيت هذا الرجل الغريب رفقة السيدة زوجته التي كانت لا تتردد في أن تقدم لها كل ما تريد، أحبتها كابنتها التي لم تلدها.. وهو السؤال الذي بقي يدور في مخيلة ربيعة، لكنها خجلت من طرحه عليهما، لم هذا البيت خاو من الأطفال وهما في سن متقدمة، هل لديهما أولاد هجروهما بعدما كبروا، كحال الكثير من الأولاد الذين يرحلون من هذه الدشرة، بعد سن البلوغ، بحثا عن حياة أخرى، أم إنهما لم ينجبا أولادا في الأصل.. بعد تردد كبير وعلى مائدة العشاء، وهي جذع كبير لشجرة، عدله الشيخ حتى أصبح

مسطحا دائري الشكل، كان السؤال بمثابة الإعلان عن دخولها الشيخ والعجوز في صمت لم يكن في الحسبان، أحست بخجل يقطع محياها، ظهر على ملامحها عرق كمن صب الماء عليها، توقفت عن الأكل، ثم انسحبت إلى الخلف، واختفت تحت ضوء خافت من سراج قديم، يستعمله الشيخ لإضاءة مكان الأكل، ثم يحمله معه عندما يريد الذهاب للنوم. بعد فترة زمنية من هذا الصمت، التفت الشيخ بحثا عن ربيعة، التي انكمشت تحت غطائها، وطلب منها العودة والجلوس إليهما، قفزت من تحت فراشها، أحاطها الشيخ بذراعه، وقربها منه:

***

- كنت مسافرا في قرية صغيرة ليست ببعيدة من هنا، في شتاء بارد، سقطت الثلوج حتى غطت كل تضاريس الأرض، ولم تبق إلا الجبال تطل بقممها، لا أتذكر كم بقينا تحت هذا الحصار فقاطعته زوجته... ربما أكثر من عشرين يوما. نظر إليها الشيخ ثم أكمل الحديث، ربما لاحظت أن بالقرب من هذا البيت بقايا أشجار تشبه زوايا بيت عتيق، هي في الأصل بقايا البيت الذي سقط من قوة الثلوج على عائلتي، والدي ووالدتي واثنين من إخوتي وزوجتي وولدي الوحيد، حين ذاب الثلج كانت أرواحهم قد سافرت إلى خالقها، ربما في الليلية الأولى التي سقط السقف على رؤوسهم، وبعد عودتي وجدت جثتهم فقط وقد نهشتها بعض الحيوانات.. لا أستطيع أن أنسى ذلك المنظر الرهيب، وما زلت أتذكر كل تفاصيله، بقيت

وحيدا من ذلك اليوم، وبعد مرور بعض السنوات على الحادثة، تزوجت "يمنية"، ولم نرزق بأولاد والحمد لله على كل حال.

***

نظرت ربيعة إلى محيا الرجل الغريب، فوجدت لحيته قد تبللت بالدموع، يظهر بريقها من السراج الذي وضع على حافة الطاولة عند حضور الأكل، عم الهدوء والصمت في هذه اللحظة، قطعته أصوات الذئاب في الخارج، التي لا تكاد تنقطع طوال الليل، لكن أهل الدشور ألفوا هذه الأصوات، وأصبحت ضمن لياليهم لا يهابها حتى الصغار، انفجر كلا الزوجين من الضحك، تلتهما ربيعة، التي أحست بأنه رغم كل هذه المعاناة إلا أن روح الدعابة والمرح لا تزال تسكن هذين الشخصين، اللذين استقبلاها في بيتهما، المبني من الحجر والسقف من الحطب ونبات خشن، صعب المراس كأغلب البيوت في الدشرة. انتهت هذه الليلة على الذكرى الأليمة التي يحملها الغريب بين أضلعه منذ سنوات، وأصبحت تذكار حزن معلقا في ذاكرته، نبشت عليه ربيعة الليلة وأخرجته إلى العلن كحال من ينبش في الأرض فيخرج عظام الأموات. كلما نظرت في ملامحهما أدركت أنهما ليسا بذلك الشخصين الهرمين، فقط أنهكتهما الحياة، وبسطت تعاليم التعب على جسديهما، حتى أفسدت فيهما كل معالم الحيوية والنشاط، وأصبحا يظهران من بعيد على أنهما يقفان على حدود الشيخوخة.

بالرغم من أنها أصبحت واحدة من هذه العائلة، ويزيد تعلقها بهما، وهما كذلك، من يوم إلى آخر، إلا أنها كلما استلقت في فراشها، يراودها كابوس ذلك اليوم الذي سوف يطلب منها الرحيل، أو يأتي أحد من أهلها طلبا لرجوعها، والأكيد، أن هذا الغريب لن يتردد في تلبية هذا الطلب. ففي الأخير، سوف يحترم القرابة، ولن يكون عنيدا في منعها عن أهلها.. كانت تتقلب مرات ومرات، وتقلب هذا اليوم في ذهنها، كمن يلوك اللبان في فمه وهو يصارع اللسان. ومهما حدث، فلن تنكر الترحيب والاستقبال الذي لقيته من طرف هذا الغريب وزوجته، والحنان والطيبة اللتين افتقدتهما عند أقرب الناس إليها، وهو والدها، ومن بعده أعمامها وأخوالها. أحست بقيمتها كفتاة شابة محبوبة، دون النظر إلى معايير كره أهل الدشرة للأنثى، تتجول هنا وهناك بينهما، كأنها عاشت معهما منذ الولادة، شربت وأكلت ونامت كيفما شاءت. وفوق هذا كله، أهدياها خير اللباس، لم تسأل من أين لهما هذا لأن فرحتها بهذه الكسوة أنستها السؤال.

***

أتى ذلك اليوم الذي كان يقطع تفكيرها، كما يقطع القماش بشيء حاد، حين طلب منها الشيخ الجلوس إليه، ومصارحته في ما تريد.. تلعثمت ولم تجد ما تقول، وبقيت تحملق في لحيته، كأنها تريد اختيار الكلمات المناسبة من أجل إقناعه بالبقاء. قاطعها بعد هذا السكوت، بأنه سوف يحترم رأيها مهما كان، ولها الاختيار. فانشرح

صدرها، وطفت على محياها ابتسامة، كشفت عن تضاريس وجهها، رغم قلة النور من السراج. اعتدلت في جلستها وهي تتأمل ذلك السراج الذي بدأ نوره يخفت ويعلن عن الاختفاء. قصت له ما جرى مع زوجات أعمامها، وكيف عارضن فكرة بقائها رفقة أولادهن، كأنها ساحرة أو مشعوذة، لكنها حين وصلت إلى ذكر ما عانته في بيت خالها الذي كان من المفروض أن يكون الحامي لها، لكنه عجز أمام حيل زوجته التي دفعتها إلى الهرب غلبتها الدموع، وتوقفت عن الكلام، كأنها تطلب في صمت من الغريب أن يبقيها معه. التفت بدوره إلى زوجته، كأنه يريد رأيها بإشارة خفيفة منها، ثم نهض يبحث عن قدح ماء يشربه:

- أنت فتاة طيبة، من أصل طيب، شهدتك منذ أن كنت مثل قطعة قماش، فوق ظهر والدتك، وهي تصارع من أجل أن تبقيك على قيد الحياة، حتى ولو كان على حساب حياتها في ذلك اليوم المشؤوم، مع مرور الوقت أشعر بأن الله اختارني لأكون سندك. لذا لا أعتقد أن الغابة تليق بك، ويجب أن ترحلي من هذا المكان. صحيح، كلانا يود بقاءك، لكننا لن نكون أنانيين معك، وسوف نهديك ما كنا سنهديه إلى ولدنا أو بنتنا، لو رزقنا الله بأحدهما أو كليهما.

بقيت ربيعة تنظر من حولها دون كلام، وتتساءل في صمت: كيف يريدها أن ترحل، وفي نفس الوقت هو سندها، وسوف يهديها ما كان سوف يهديه إلى ولده أو بنته..

غير أنه أتم حديثه إليها، بأنه سوف يأخذها إلى القرية الصغيرة، فهناك يملك بيتا صغيرا، يمكن أن تسكنه، يمكنها أن تهرب من عالم الغاب والجبل إلى الأبد، يمكنها أن تصنع لنفسها علاقات جديدة، وحياة أخرى بعيدة عن كل الآلام والمعاناة، التي عاشتها في هذه القطعة المنسية من الأرض.

من كان يعتقد أنني بعد كل تلك المعاناة والظلم الذي عشته منذ زمان، أنا اليوم هنا إلى جنبك يا وردية، حرمت خلالها الحنان والطيبة وحب العائلة، أكرهت على العمل مثل الرجال، بالرغم من كوني لا أزال صبية صغيرة، جمدت براءتها التي سلبت منها فقط لأنها أنثى، حتى صقلت على الشدائد والصعاب. علق لي والدي أوسمة من التعنيف في كل أنحاء جسدي، وهي اليوم نائمة إلى جنب بعضها مثل أوتار تئن في كل لحظة.. عيرني بالعرجاء، ومازلت أحمل هذا اللقب، كما تحمل العجوز المسنة وشما على جبينها أو وجنتيها، يصعب مسحه أو إزالته. خرجت منبوذة من بين أعمامي، وطاردتني زوجة خالتي ليلا نهارا، كمطاردة الوحوش للفريسة، حتى حملت نفسي وهربت دون رجوع، ولم يكن يهمني ما سوف يحدث معي في وحشة الغابة، حتى ولو لقيت حتفي. كنت حينها سوف أنام بسلام

إلى الأبد، لكن القدر حملني إلى ذلك الغريب، الذي أهداني بيتا في القرية دون مقابل، أعيش فيه اليوم رفقة واحدة من أهله.

***

بكت بكاء ثكلى، حين حملت القليل من الثياب، وهمت بالخروج من بيت الغريب. بكتها زوجة هذا الغريب، كأم تودع ابنتها إلى دارها رفقة زوجها. حزنت لأنها تركت هذا الجو الذي لم تعشه حتى مع أهلها، لكنها كانت سعيدة، بأن انتهت من هذا المكان، ولم يبق يربطها به ما عدا حبل سرتها. أما الذكريات، فحتى ولو كانت قاسية، سوف تزول مع مد الحياة وجزرها.. سار بها الغريب فوق حصانه، حتى أوصلها إلى هذا البيت. لم تشأ أن تسأل من أين له به، أو كيف اختار البقاء في الغابة، على أن يأتي إليه، لكنها كانت تعرف أن الأشخاص يحنون إلى تربة مولدهم، لذا، يبقون متعلقين بها، ويفضلون الموت بالقرب من ذكرياتهم، خاصة ممن مسهم الكبر، فهم يرون أن القرية أو المدينة لا تليق بهم، ويحسون بالاختناق فيها. أوصى عليها هذه السيدة من أهله ثم رحل، بعدما ودعها توديع أب لابنته.

بقيت ربيعة تتجول في هذا البيت، وتنتظر اللحظة التي تستيقظ فيها وتجد نفسها في حلم، فتتحول هذه اللحظات إلى كابوس. لكنها ألفت هذا كله، فقد عاشت حياتها كلها تصارع الكوابيس، نائمة ومستيقظة، ومهما يكن، فقد عاشت هذه اللحظات الجميلة، حتى ولو كانت حلما عابرا، سوف تستيقظ منه

قريبا، لكن اتضح الأمر حقيقيا مع مر الوقت. فالرجل الغريب لم يكن يوما حلما في حياتها، بل هو الحقيقة الوحيدة في حياتها من الأفراد الذين عرفتهم، التي أضافت لها جرعة أمل في الحياة ودفعتها إلى السير قدما رغم كل الصعاب، حتى نالت ما هي عليه اليوم. لم يكن من الصعب عليها أن تألف هذه الحياة السهلة، التي تقضيها في الغالب بالجلوس ومراقبة المارة وهذا العالم الجديد من الشرفة، أو الاستمتاع بأحاديث المذياع العتيق، مقارنة بحياتها السابقة. لذا، تأقلمت مع العيشة الجديدة، التي كانت أول هديتها بنت الجيران، وردية، التي أظهرت لها الود منذ أول وهلة، تجاذبا فيها أطراف الحديث، والحوار القصير الذي دار بينهما، كان بمثابة فسحة للتعارف. زاد ودهما مع مرور الوقت، حتى أصبحتا أختين من أمين مختلفتين، تعيشان اليوم صداقة، كانت بمثابة دواء وشفاء للجفاء الذي تعيشه كل واحدة منهما منذ زمان، لا يفترقان إلا نادرا.. امتلأت أيام كل واحدة منهما بالبهجة والسرور، تبدأ بالضحكات المسموعة من كل مكان كل صباح، وتنتهي على القصص والخرافات التي يتداولان عليها كل أمسية، التي كانت تحمل منها ربيعة الكثير، بالإضافة إلى مغامراتها في الغابة وتتبع الأبقار والأغنام.

بعد أن ألفت وجوده وهو يراقبها من بعيد، أصبح ينقطع عنها في الكثير من المرات، حتى أصبحت تحس بأنه تركها إلا الأبد، ويشدها إليه إحساس غريب لم تألفه من قبل، كحال الخوف من الفراق أو

فقدان شخص عزيز، لكنه كان يعود كل مرة، حاملا معه تلك الابتسامات التي يوزعها عليها من بعيد، تترجمها هي كلمات، شوق ولهفة إلى يوم اللقاء.. بقي بالنسبة إليها ذلك الشاب الغريب الذي يتواصل معها، عبر الإشارات، فهل تكفي هذه الحركات في بقائها معها، أم سوف يأتي اليوم الذي يمل.. كانت دائما تسأل وردية هذا السؤال، فترد عليها بعفويتها: "وأنا واش عرفني بعلم الرجال... ولا أجيد القراءة ولا أملك حبيبا، لكي أعرف من خلاله أسرار الرجال".

كانت ربيعة تعرف جيدا، فلا يمكن في كل الأحوال أن تضحي بأنوثتها بحثا عنه في الأسواق، بل اعتبرت الأمر خيانة بالنسبة إليها، فلم تعتد التواصل مع الرجال، خاصة الشباب، فهي تعرف مكرهم، ويكفيها أنها عاشت، رفقة الرعاة الذين كانوا يخرجون معها من الدشرة، أبناء جيران، لكنهم حينما يغرقون بين الأشجار، يتحولون إلى قطاع طرق، يتلهفون إلى الانقضاض عليها، بعيدا عن أعين الناس، لقد قاومتهم بشراسة في الكثير من المرات، مثل ذئبة، دفاعا عن صغارها، كانت شرسة لا تتردد في الضرب بكل قواها، حتى أدمت بعضهم، دفاعا عن شرفها.. غير أن هذا الشاب مختلف عنهم، يظهر من بعيد أنه خلوق وطيب، بالرغم من أنه لا يمكن الحكم على شخص من مجرد التواصل معه عبر النوافذ والشرفات.

لم تفكر ربيعة يوما في كونه سوف يؤذيها، على الأقل في الفترة الحالية، لأن تواعدهما بقي من بعيد، ولو وصل إلى مرحلة الجلوس جنبا إلى جنب، حينها يمكن أن تحكي عن صدقه معها، أو يكون مثل

الكثير من الرجال، الذين يصطادون النساء بالضحكات المزيفة والابتسامات الغامضة، وحين يصلون إليهن يتحولون إلى أشخاص آخرين. لذا، قررت في لحظة من اللحظات، أن تترك الأمر للصدفة، وأن تخرج لتعرف بعض أزقة القرية الصغيرة، وتلامس وجوه سكانها عن قرب، وتعرف ملامح عماراتها وسكناتها المنظمة، التي ليست مثل الدشرة، حيث ترمى البيوت عشوائيا في كل مكان، على أن يكون الأمر فضولا وليس بحثا عن هذا الشاب الغريب. والأكيد، سوف تتصادف معه، وربما ينتظر نزولها من الشرفة لكي يراها واقعا، ويقف على حدود قدها ولون عينيها، ومقاس قدميها، لينتقلا إلى مرحلة أخرى من التواصل الروحي، الذي نجح رغم البعد وعن طريق الإشارات، من فوق شرفة البيت إلى الشارع العام.

فكرة استحسنتها وردية، وقفزت لها مثلما تقفز بنت صغيرة حين تقدم إليها هدية، لم ترد معرفة سبب هذا القرار المفاجئ، بعد الرفض القاطع من ربيعة للخروج، بقدر معرفتها ذلك اليوم الذي سوف تخرجان فيه، تتجولان، لساعات طويلة في القرية، فهي كذلك لا تخرج إلا نادرا، وحتى لو استطاعت، فلا حاجة لها بالخروج، فلا تريد أن تقف بأم عينيها على فتيات رفقة أزواجهن فتزيد حسرتها على نفسها. لذا، كان بقاؤها في البيت بمثابة هربها من هذا الواقع، الذي كانت كل تفاصيله تذكرها بعنوستها، بدءا من العائلة، فالمطلقة والعانس في المجتمع بمثابة عار متخف بين أضلع الأسر، ويعتبره الكثير من الأشخاص لعنة أصابتهم حين أهداهم

القدر عانسا أو مطلقة، بل أكثر من هذا أنثى.. لذا، أصرت على أن تكون خرجتها المقبلة رفقة صديقتها، توأم روحها، كما كانت تردد دوما معها.

وجاء ذلك اليوم السعيد، الذي تأبطتا فيه بعضهما، وهما تتمتمان بكلام غير مسموع، قبل الخروج إلى الشارع.

***

جلسا في الشرفة كالعادة، تتبادلان الحديث، وتوزعان الضحكات المسموعة، بعد هذا اليوم الجديد، الذي كان ربما الأسعد لكليهما منذ زمان، تعيدان كل التفاصيل ولحظات الساعات الطوال التي قضياها منذ أن وطأت أقدامهما الشارع، إلى حين الرجوع. انقسمت تلك اللحظات بين الضحك والهمس، وهما تلامسان ملامح المارة لأول مرة، تعلقان على هذا، وتتحاشيان ذاك كأنهما تصادفان الوجوه البشرية لأول مرة. كانت سعادتهما تظهر في ملامحهما، وهما ملتصقتان ببعضهما، طوال الوقت. زارتا بعض الدكاكين الخاصة بلباس النساء، من أجل الفضول فحسب ووقفتا عند الشارع الذي يقابل الشرفة مباشرة، كأنهما تشمان عطر ذلك الغريب، الذي ألف هذا المكان، وهما تتغامزان وتبادلان الابتسامات.. أحست ربيعة لأول مرة بقربها من هذا المكان، وهي تقف فوق الرصيف الذي يقف عليه من تبادله تلك اللحظات. تداعبها وردية بقولها: ألم تقولي لي إنك سوف تخرجين فقط، من أجل نزهة، وليس بحثا عن ذلك الغريب، ونحن نقف مكانه الآن..

لكن ربيعة ترد عليها بدبلوماسيتها المعهودة: في كل الأحوال، كنا سنمر على هذا المكان، سواء فضولا أم للنزهة.

شاركتهما لأول مرة هذه الجلسة الطويلة، حدة، امرأة قاربت الخمسين من العمر، وهي بنت عم الرجل الغريب، يظهر من أول وهلة لا ولد ولا صديق لها، لم تعرفا قصتها، وكيف وصلت إلى هنا رغم كل هذا الوقت الذي كانتا تقضيانه بالقرب منها، إلا أنها كانت تشاركهما فقط، أمسيات الضحك وحكاية الخرافات التي تبدع فيها ربيعة، رغم سنها، إلا أنها حاذقة في إثراء السهرات بهذه القصص التي لا تكاد تنتهي من إحداها حتى تبدأ في أخرى، إلى آخر الليل، ثم تفترقان. كانت "حدة" تخرج دائما كل صباح وتعود مساء، تحمل معها بعض الجرائد القديمة، التي يظهر عليها أنها من عهد قديم إلا أنها كانت محبة للقراءة، خاصة بعدما تنتهي من تحضير بعض الثياب، التي كانت تخيطها، تحملها كل صباح معها، وتعيد نفس العمل كل يوم. والغريب، أنها حتى هي لم تتجرأ يوما على أن تسأل ربيعة عن أصلها، وكيف تعرفت على ابن عمها، الذي حملها في يوم ما وأسكنها إلى جنبها، كما لم تعترض يوما على مجيء وردية عند ربيعة، فتقضي أغلب وقتها رفقتها، تقاسمهما بعض اللحظات ثم تنصرف، وهي المرة الأولى التي جلست إليهما في الشرفة، وهما تتبادلان الحديث عن حياة الشارع وأزقة هذه القرية الصغيرة، التي تختلف فيها الحياة عن حياة الدشرة، على الأقل بالنسبة إلى ربيعة التي جربت هذا وذاك.. لهذا، تجد أن الحياة في القرية أقل صعوبة

بل هي سهلة، مقارنة بالدشور التي تتوسد الجبال، بالنسبة إلى المرأة خاصة، فهي لا تكاد تتوقف عن الشغل بين البيت والجري وراء الأغنام والأبقار في كل الاتجاهات، تحمل الحطب، وتخرج من بيتها صباحا، ومنهن من لا تعود إلا وقد غابت الشمس وعادت أدراجها.

كانت ربيعة تحكي كل هذه التفاصيل لوردية، التي تقف شاخصة البصر، بالرغم من كونها تعرف تماما حياة الدشرة والجبال، لكنها تعتبر حياة ربيعة كانت الأقسى، بل في بعض الأحيان تبكي معها بكاء عزاء على ما حصل معها، ربما هي اللحظة الوحيدة التي تنسى فيها حكايتها، وتتعاطف مع ربيعة، فمهما كان، لن تكون حياتها أقسى منها، ولن تكون العنوسة مؤلمة، أكثر من قسوة جفاء الأهل وإهمال الأقارب ومظالم الغرباء، الذين كانوا يكرهونها فقط لأنها أنثى عرجاء.

فجأة، أصبحت حدة تحن للجلوس إلى ربيعة ووردية، وكأن شيء قد تغير، لأول مرة بنات تضاريس وجهها في شمس الشرفة وهي تداعب كوب قهوة من الحجم الكبير، وتتأمل في الشارع كأنها تراه لأول مرة من هذا المكان، كانت تغازل المارين الغرباء كل يجري في اتجاه، منهم من يجري إلى هدف، ومنهم من يجري إلى مجهول، يسير والقدر يدفعه إلى الأمام، في بعض فترات الحياة نحن مجبرون على المشي حتى ولو كنا دون هدف، فالأهداف قد تتحقق في طريقنا، وفي لحظة قصيرة دون أن نخطط لها، الأمل يموت حين نصاب

بالجمود، السعي في الحياة هو بمثابة البحث عن الخلود، حتى ولو كان الفناء يتربص بنا في كل زاوية مثل صائد مأجور. كانت قليلة الحديث كثيرة التأمل. نظراتها إلى الأفق البعيد تحكي بعض همومها. ابتسامتها لوحدها من حين إلى آخر، توحي بأنها تتذكر بعض ذكريات حياتها التي عاشتها، بالرغم من أن الابتسامة لا تترجم نوع الذكرى فقد تكون لأجل مناسبة سعيدة، وفي نفس الوقت، قد تكون ابتسامة سخرية من هذا الزمان، وكذا مغازلة للقدر. كان ملاحظا عنها أنها شاردة الذهن في شيء ما، معلقة إليه، ولم تستطع تجاوزه لكنها، في نفس الوقت، لا تريد الحديث عنه إلى غيرها، بل اختارت السكوت واحتفاظها به لنفسها، أو ربما لم تجد الشخص والوقت المناسبين، لتحكي عن هذا الذي يسكن صدرها، ولم تستطع التخلي عنه.. لكن، في الأيام الأخيرة، أصبحت تجد الصحبة منفذا إلى الحديث، ولو عن مضض، في بعض شؤون الحياة. وظهر أنها عالية الثقافة في الكثير من شؤون الحياة. وكلما تحدثت، أعطت مثالا عن أشخاص ربما جلست إليهم، أو حفظت أسماءهم من الجرائد التي كانت تقتنيها كل يوم..

كانت وردية تنصرف كلما بدأت بالحديث، ربما لأنها لا تفهم كثيرا مما تقوله. أما ربيعة، فتبقى مذهولة، تداعب ملامحها من بعيد وتود لو أنها لا تتوقف عن الحديث. فلم يسبق لها أن جالست من يتحدث عن شؤون المرأة والحياة، عن مكانتها في المجتمع، عن ضرورة مشاركتها في بناء هذا المجتمع، الذي سوف يبقى أعرجا لو

همشت الأنثى منه، بطريقة أو بأخرى... في البداية، كانت ربيعة تسمع لها أكثر، كأنها في حلقة درس. ومع مرور الأيام، أصبحت تتجاذب أطراف الحديث مع حدة، التي وجدت فيها فتاة ذكية وحيوية، سريعة الفهم والترجيع، برغم صغر سنها، إلا أنها مارست الكثير من طقوس هذه الحياة، الصعبة منها خاصة. وجدت فيها ذلك الأنيس، الذي يحاورها في كل شيء، في كل صغيرة وكبيرة. تريد معرفة الأكثر، ولا تكتفي بالقليل... في المقابل، كان لانشغال ربيعة بالحديث إلى حدة أثر كبير في قلب وردية، التي وجدت نفسها، في لحظة من اللحظات، خارج اهتماماتها. فمنذ ذلك اليوم الذي جلست فيه إليهما حدة في الشرفة، وهي تداعب تلك الكأس الكبيرة. أصبحت تحس بنوع من الجفاء من صديقتها، ولم تستطع مقاومة هذا الإحساس، الذي ظهر أنه نابع من الغيرة، حين صارحت ربيعة به، فلم تشتكها بعدها عنها بسبب حدة، بقدر ما شكتها على أنها كانت تتمنى أن لها من الثقافة والكلام ما لربيعة وحدة، فلا يمكن لها أن تجاريهما، ولو بالشيء القليل. فكل ما تعرفه في هذه الحياة هو مجرد تعاليم، ورثتها من المجتمع ومن النسوة بحالها. ورغم أنها كانت السباقة إلى معرفة حدة، إلا أنها لم تتذكر يوما أنها حدثتها أكثر من التحية الصباحية أو المسائية، لا أكثر ولا أقل. وهذا يعكس، في نظرها، علو كعب حدة عليها في هذه الحياة... أحست ربيعة بالذنب في هذه اللحظة، لكنها لم تكن تقصد، فقط الحياة تسير هكذا، كل يوم جديد يخفي لنا أسرارا نكتشفها بأنفسنا، لكنها

لم تفكر يوما في التخلي عن صديقتها في الدعابة، وردية التي مهما حدث، سوف تبقى الأخت التي لم تلدها أمها. كانت ربيعة تردد هذا الكلام، وهي تداعب خصلات شعرها التي ابتلت أطرافها بعدما وقعت على وجنتيها من أثر البكاء، وكأنها لا تريد الرجوع إلى زمن كانت الوحدة تحاصرها من كل مكان، وربيعة هي من ازالت عنها غطاء هذا الصمت القاتل، الذي ترك آثارا دامية في حياتها، كما يترك وخز الإبر علامات مؤلمة على أجسادنا.

***

انفصلت ربيعة عن الدشرة حتى في تفكيرها، وتلاشت تلك الأحزان التي عاشتها مع مرور الوقت، منذ أن وصلت إلى هذه القرية الصغيرة، وتعرفت على وردية ثم حدة، التي أصبحت، في الآونة الأخيرة، الأقرب إليها، وظهرت على ملامح صداقتهما أنها تتقاطعان في الكثير من النقاط، خاصة الإصرار والتحدي. وبدأت تنكشف شخصية حدة إلى ربيعة، دون السؤال، واتضح أن ثقافتها لم تكن من العدم أو الصدفة، وحبها للمطالعة وتتبع الأخبار، كل يوم عبر بعض الجرائد التي كانت تحملها معها كل مساء، فقد كانت عضوا في جمعية تهتم بشؤون المرأة، حتى انفصلت عنها لأسباب بقيت مجهولة، ولم تحدث عنها أحدا، غير أنه من طريقة حديثها إلى ربيعة في موضوع نشاطها في هذا الميدان، ظهر أنها عانت الكثير، مع أصحاب الأزياء الرسمية، كما كانت تسميهم، واتضح أنه كان هناك صراع كبير، بين هذه الجمعية أو الهيئة، ومن يعارض وجودها

لأنها في اعتقادهم لا تريد الخير للمرأة.. كان حديثها إلى ربيعة في هذا الموضوع، بمثابة المسح على الجرح الذي ينام على القيح والتعفن.. وقعت ربيعة بالصدفة على الكثير من الصحف وقصاصات الورق التي تظهر حدة في الكثير من الاجتماعات النسوية. عرفت حينها ثقافتها في معرفة الأسماء التي كانت تحدثها بها في الكثير من المرات. فقد ظهر أنها لامست الكثير من الأماكن الراقية والشخصيات رفيعة المستوى، وتعرفهم عن قرب، وليس مجرد حفظها من قصاصات الجرائد، وذكرها أمام كل من تحدثه... زاد إعجاب ربيعة بحدة من يوم إلى آخر، واستطاعت بعفويتها وأسئلتها التي كانت تمررها إليها، أن تميط اللثام عن الكثير من تفاصيل حياتها. والأكثر من هذا، فقد استطاعت أن تفوز بودها وصداقتها، وتصبح جليسة لها كلما رجعت إلى البيت، الذي كانت تقاسمها فيه منذ زمان لكنهما كانتا لا تتحدثان إلا نادرا، فقط في السهريات التي كانت تزينها ربيعة بحكاياتها عن الخرافات وحياة الغابة والجبل.. لكنهما اليوم أصبحتا تتقاسمان همّا واحدا، كما كانت تردد حدة، وهو هم المرأة في هذا المجتمع الذكوري، الذي يتغنى بذكوريته وقوامته، ويفرض سيطرته على المرأة بحق أو دون حق... كانت ربيعة تلاحظ على ملامح حدة نوعا من الغيظ والنرفزة في احمرار وجهها وانتفاخ وريد رقبتها وهي تتحدث عن الرجال، حتى إنها كانت تنسى حديثهما في كل مرة وتغرق في السب والشتم، وحين تنتبه إلى نفسها، تجد ربيعة تحملق فيها، كأنها تراها لأول مرة في حياتها، فتعتذر إليها حدة وتنسحب إلى

حين... وحين تهدأ ثورتها تعود إلى ربيعة، وينطلق الحديث مرة ثانية... كانت وردية تراقبهما في بعض الأحيان، من خلال شق الباب أو فتحة المفتاح، وهي تعتصر غيرة.. فإحساسها بأن حدة خطفت منها ربيعة، لم يتوقف عن النبض في صدرها.

***

تحول اهتمام ربيعة فجأة إلى موضوع آخر، أحست في اللحظة التي عثرت فيها على حدة، بأنها وضعت قدميها على السكة الصحيحة في الحياة لأول مرة.. سمحت لها حدة بتصفح الكثير من الأوراق والجرائد التي كانت تحتفظ بها منذ زمان. استطاعت من خلالها أن تكوّن فكرة عما يجري في هذا العالم من أحداث، وأن ترسم لنفسها برنامجا للمطالعة بالجلوس إلى بعض الكتب، يوم بعد يوم من الاهتمام والتفرغ للتجول بين قصاصات الورق وصفحات الكتب، ورزم الجرائد القديمة، التي كانت تشم فيها عطر المقاومة، التي كانت ترويها على مسامعها حدة كل يوم، كان هذا يظهر من خلال بعض العناوين المثيرة، التي كانت تزين بعض الصفحات. أحست بنوع من الحماس من بعض التصريحات التي كانت بعض النسوة يرددنها. راودها الحلم في بعض اللحظات للوقوف أمامهن واقعا، وليس على صفحات الجرائد. وهو الأمر الذي كان يضحكها مع نفسها، فكيف بعرجاء أن تصطف في يوم ما مع نساء يتفوقن عليها جمالا وعلما وثقافة وعلاقات في هذا الميدان.. والأهم من هذا، نساء متحررات، تظهر عليهن ملامح

التمدن والتحضر... حين كانت تردد هذا الكلام على حدة عند رجوعها، تبتسم من قولها، وتطلب منها عدم الوقوع في فخ التواضع واحتقار النفس، في عالم لا يرحم كل من تواضع له، العالم اليوم مبني على مبدإ القوي ولا يهم من أي جنس ولا لون.. المهم، القدرة على القيادة، وترويض الظروف الصعبة، ورسم الأهداف عاليا. والأهم من هذا، القدرة على التأقلم مع كل الظروف والمواقف. العالم يتطلب منا أن نكون أقوياء، أن نصبر على الضربات الموجعة، أن نعرف الصديق من العدو، أن نصاحب كل الأشخاص، لكن بثقة متفاوتة. فالحياة مليئة بالكثير من المفاجآت، فكم من صاحب أصبح العدو اللدود، وكم من عدو كان لنا بمثابة واقي الرصاص، نحتمي به في الكثير من المواجهات... يهتز كيان ربيعة في كل مرة، حينما تخاطبها حدة بهذا الكلام، وكأنها تشحذ فيها الحماس من أجل معركة قريبة، تبقى مشدودة البصر والسمع إليها، دون أن تحرك ساكنا. في هذه اللحظات، كانت تنسى عرجها وتجريدها من قدم مستوية، وحين تخرج حدة وينتهي حديثهما، تبقى تراوح المكان في الغرفة، تقلب الصفحات بسرعة وتدقق في كل شيء، كأنها تريد أن تصبح في أقرب وقت قائدة مسموعة في كل مكان. ربما هي المرة الأولى التي أحست فيها بأنها يمكن أن تكون متبوعة من طرف الأفراد، وليست تابعة، كما كانت دائما. كانت ترى نفسها أمام الجموع والنساء يناديها من كل اتجاه، وهي تبادلهن التحية والسلام.

كم هي جميلة الحياة، حين تصبح معروفا عند أناس أنت لا تعرفهم، يعرفون تفاصيل حياتك ويتشوقون إلى لقائك، لكنهم مجهولون بالنسبة إليك، فقط تبادلهم الابتسامة في الطريق والتجمعات.. كم هو جميل ذلك الإحساس، الذي تكون فيه مسموعا في كل مكان، والكل يترقب نزولك وظهورك على صفحات الجرائد، تكشف الأضواء المتلألئة من حولك تفاصيل ملامحك لكنك لا تدري من تفاصيل تلك الجموع إلا الكثافة في العدد... أصبح هذا حلم ربيعة العرجاء، تستيقظ منه في كل مرة، فتجد نفسها قد نامت فوق مئات الأوراق، والعديد من الكتب، تنتظر الساعة التي تطرق طرقا خفيفا على رقم منتصف النهار، بعد سهر طويل لوحدها، ليس في مداعبة شوارب حبيب في الخيال، أو ملامح وجهه، أو تفاصيل صدره.. لكن، في تتبع مسيرة نساء يكافحن رغم كل شيء... ورأت في نفسها قائدة، رغم أنه كان مجرد حلم في المنام...

شغلتها الكتب وقصاصات الجرائد، عن الوقوف على شرفة البيت من أجل مراقبة صاحب النظارات.. كانت تحوّل نظرها في بعض الأحيان، من أجل الفضول فحسب. وتزامن تغير اهتمامها هذا في الحياة، مع غياب ذلك الغريب، الذي كان يراقبها من بعيد. وبالرغم من هذا، كانت تحس بغيابه، وحتى لو نسيته في لحظة من اللحظات وطردته الأحداث الجديدة من فكرها، كانت وردية تذكرها في كل مرة بهذا الطائر، الذي كان يغرد كل يوم بعد ساعة الظهر حتى غروب الشمس في بعض الأحيان... أصبحت وردية كلما تجلس

إلى ربيعة، تحس بذلك الجمود، لم تبق تلك الفتاة التي يحملها الحلم ويوزعها فوق السحاب، وهي ترسم بأناملها ورودا تنثرها على الجموع أمامها. لم تبق تلك العذراء التي تطير فرحا، حينما تدخل عليها أشعة نظرات حبيبها، وهو يغازلها من الجهة الأخرى من الطريق، ويحملها إليه عطره الذي يزكم المكان. أصبحت قليلة الحديث في هذا الموضوع، وحين تتطرق إليه، تفعل ذلك على مضض.. تتحجج بغيابه المستمر، الذي لم تجد له جوابا. فلو كان حقا يريدها، لطلب منها اللقاء، فكيف ينتظر أن تواعده وهي غريبة الديار، وهذا مخالف لقانون العشق وفطرة الكون. كانت حجتها قوية، لذلك تستجيب لها وردية، ولا تجادلها في الكلام. فالمراء معها أصبح صعبا، كصعوبة ترويض أرنب بري لا يعترف بالحدود... في المقابل، كانت تحدثها عن كل ما كان يجري بينها وبين حدة من حديث، بنوع من الحماسة والتحدي. تقف هنا وهناك في الغرفة وتشرح لوردية الكثير من التفاصيل، التي لا تكاد تفهمها. لذا تنسحب في الكثير من المرات معتذرة بضرورة الذهاب. أحس الطرفان بأن الحديث بينهما أصبح متقطعا، ودرجة التفاهم بينهما تتصدع من يوم إلى آخر، كما تتصدع المباني الهشة العتيقة. وربما النقطة الوحيدة التي كانت تجمعهما، وهي صاحب النظارة، تلاشت منذ ظهور حدة في حياتها. وحتى إن كانت ربيعة تخفي ذلك الشوق إلى ظهوره على حافة الطريق في الجهة الأخرى للشرفة، إلا أنها لم تصبح تقر بهذا أمام وردية، التي أحست بدورها بأن ربيعة لم تبق

تلك التي عرفتها قبل بعض سنوات، وأن حضور حدة المفاجئ وغير المنتظر، كان السبب المباشر في جفاء علاقتهما. لذا، أصبحت كلما شاهدت حدة ترميها بكلمات غير مسموعة، ونظرات حادة وانصراف على عجل، وهي تتمتم: "أعوذ بالله".. كانت ربيعة تراقب هذه التصرفات عن قرب، لكنها لم تجد ما تقول، كما أن حدة لم تنزعج من هذه التصرفات، كأنها نضجت من التعامل مع مثل هذه التصرفات بالمثل، وتجاوزت شجار النساء بشد الشعر والصياح من الشرفات، والكلام البذيء المسموع من كل مكان. وانتقلت إلى مرحلة أخرى من الصراع في الحياة. وبدل تضييع الوقت في هذه السلوكات الطائشة من أشخاص عاديين، وجب الخوض في أمور أكثر أهمية... كانت ربيعة تبارك هذا الحديث من حدة في كل مرة فعلى الأقل، كلامها يوحي بأنها لا تحمل أي ضغينة لوردية، التي أصبحت سلوكاتها لا تطاق في الآونة الأخيرة، لكنها، لم تكن لديها الجرأة الكافية لخوض هذا الحديث مع حدة. وهو ما كانت تخشاه ربيعة في كل مرة. فالحديث بينهما غير متكافئ. أكيد، بين من كانت تحمل مشاريع الدفاع عن المرأة، وتطرق كل الأبواب من أجل تحقيقها، ومن لا تعرف حقوقها كامرأة في هذا العالم. لذا، لا تريد أن تخسر كليهما، مهما حدث.. فكلامها لها شطر كبير في قلبها...

***

تنام الأحزان بالقرب منا، وتستيقظ حين نريد أن ننام، مهما تظاهرنا بأننا تجاوزناها، فلا يمكن لنا أن ننكر أنها تقفز على صدورنا حين نغفل في وحدتنا، نحس في بعض الأحيان بأنها تريد أن تخنقنا في الظلام والعزلة، فنهرول بحثا عمن ينقذنا منها، ولو بالكلام إلى من يسمعنا. بعض الذكريات الأليمة، لا يمكن للدموع أن تمحو آثارها من أنفسنا، لأنها تركت وخزا عميقا في صدورنا. تختار الليالي الطوال، وتجتمع كما تجتمع الذئاب على فريستها تحملنا إلى ذلك العالم الذي فككنا أسره، وهربنا منه منذ زمان. وتعيد وضعنا في نفس المكان، وتعيد فتح الجرح، الذي لم يندمل بعد، وتفتش من خلاله عن مواجعنا.. لذا، نبيت في الكثير من الليالي كالمصلوب إلى جذع شجرة، يراقب الجلادين وهم يحضرون السياط، الضرب مؤلم والصياح قوي، لكن، لا مجيب ولا منقذ لنا...

كانت ربيعة تصارع هذا الكابوس كلما استلقت في فراشها. تستيقظ على صوتها من الألم، والأشباح تحيط بها، والثعابين تطاردها طلبا في لدغها، تعترف بأنها رغم عرجها، إلا أنها كانت تنقذ نفسها في كل مرة من حية مخيفة تراقبها من جحرها. لم تجد تفسيرا لكل هذا، واعتبرته مجرد أضغاث أحلام، كانت في كل مر تستيقظ وهي مفزوعة، لا تستطيع النوم بعدها. لذا، تقضي ما تبقى من الليل تطالع بعض الكتب والجرائد والمقالات، التي أهدتها إليها حدة. مناسبة للهدوء والسكينة، والتمعن والتدقيق أكثر في كل ما كتب

عن مسألة المرأة. وهي القضية التي أصبحت تشغل بالها منذ زمن قريب. وحين تجلس إلى حدة في الصباح تناقشها في بعض المسائل التي لم تفهمها، أو تريد طرحها، انطلاقا من نظرتها الضيقة إلى الأحداث. كانت حدة ترحب بهذا الفضول دائما، تناقشها دون ملل تقدم لها الآراء والحلول، وتأخذ برأيها في بعض المسائل. زادت رغبة ربيعة في ملامسة هذا في الواقع. فشغفها بدأ يزيد ويتسع أكثر فأكثر. والكتب والجرائد، أصبحت لا تشفي غليلها من الفضول والتعمق أكثر في عالم المرأة وشؤونها. استطاعت، في زمن قصير، أن تقرأ العديد من الكتب، وأن تتصفح كل الجرائد، وأن تضع بعض المقارنات من محتوى كل ما كتب عن المرأة وبعض شؤونها. فسمح لها هذا الاطلاع الكبير والمستمر بأن تميط اللثام عن محياها في قضايا جنسها، وبأن تكسب الثقة في نفسها، كما كسبت السلاسة في حديثها، وتسلسل أفكارها... كانت حدة تراقب حديث ربيعة إليها في كل مرة باهتمام كبير، وهي تبتسم من حين إلى آخر، فتتوقف ربيعة عن الكلام، وتبقى تراقب ملاحظات حدة لها. فقد اعتادت على تصويب الحديث والكلام منها، غير أنها، في الآونة الأخيرة أصبحت تلقى منها الترحيب والمجاملة أكثر من التوجيه والتصويب. كان الفخر يعصر ما بداخلها، وهي تحدث حدة لأول مرة بطلاقة ودون عقدة، كأنها ولدت مباشرة بعد معرفتها بها، تحمل شخصية متزنة، وعقلا راجحا، واطلاعا واسعا في هذا العالم، تناسق حديثها مع حركات يديها، وحملت في الحديث الكثير من الأمثلة السابقة

وكأنها كانت شاهدة عليها.. تجاوزت بذلك الكلام في الدشرة والغابة والجبل، وما حل بها، كأنها خرجت من ظلمة الكهف إلى ضوء النهار وشعاع الشمس، وانقلبت حالها من هنا إلى هناك، من الطرف إلى الطرف الآخر، دون إشعار سابق ولا دعوة من أحد، فقط بالجلوس إلى تلك المرأة التي زرعت فيها بذورا جديدة من شيء جديد، استطاعت أن تنبت في ظرف وجيز، وهي اليوم تقطف ثمارها.

***

طال غياب صاحب النظارة، ولم يظهر عليه أثر منذ زمان. لاحظت ربيعة هذا الغياب الذي تجاوز الحدود لأول مرة، وانتابها شعور بأن في الأمر شيئا مريبا.. أرادت أن تحدث وردية في الأمر لكنها خافت من رد فعلها، فمنذ زمن طويل كذلك، لم تجلسا إلى بعضهما، كما كانتا في السابق، وكان الأمر واضحا، أن ربيعة سلكت مسلكا آخر مع صديقتها الجديدة، وأصبحت تتجاوب من قضايا المرأة وتحدياتها أكثر من الغوص في حضن رجل لا يؤتمن، كما كانت تردد أمامها حدة في كل مرة، لكنها، رغم هذا، لا يمكن أن تخفي ذلك الشوق واللهفة التي تعصر صدرها، فحين تأتيها هذه الحالة، تصبح كمن مسه مس، يتخبط بين الأيدي يرجو النجاة. بعد هذه المدة الطويلة، استيقظ ذلك الشعور بداخلها، وأصبح يحرك مشاعرها وأحاسيسها، إلى ذلك المكان. تركت كل ما كانت تطالعه، وما كان يشغلها عن تلك الأيام، ورمت كل القصاصات التي كانت تحاصرها حتى في فراشها، ووقفت تنتظر ظهور ذلك الشاب الغريب، كمن

تنتظر رجوع فارسها بعدما كان في ساحة الوغى، حاملا معه الشوق واللهفة إلى حملها إلى مكانهما الوردي، الذي تترجم فيه ساعات الانتظار ورهبة الوحدة، ونار البعد والفراق.. غير أنه لا جدوى من الوقوف والانتظار، فحقيقة غياب صاحب النظارة أصبحت جلية لا نقاش فيها، فربما هجرها إلى الأبد، وهي لا تدري، كانت في بعض الأحيان تخلو بنفسها أمام المرآة، وتتساءل: ترى، أكانت هي السبب في بعده عنها؟ هل انشغالها بنساء أخريات لا تعرفهن عبر صفحات الجرائد وترقبها ذلك اليوم الذي تكون فيه سيدة أمامهن، كان السبب في عدم انتباهها إليه، وقد كان يزورها كل يوم، لكنه يرجع خائب الظن، مكسور القلب، مقلوب الخاطر، بعدما أحس بإهمالها له فجأة، أم إنه هو كذلك اختار البعد عنها، فربما كان ينتظر قفزها إليه من فوق السياج وعبر النافذة، ترجمة لحبها وصدقها معه، لكنها ليست تلك المرأة التي ترمي بنفسها في حضن رجل غريب، لأن الغرباء، في الكثير من المرات، يقومون بأعمال بشعة ثم يختفون بسهولة. لذا، يختار الكثير منا، في بعض الأحيان الهرب إلى أحضان الغرباء أو إلى الأماكن المجهولة، لممارسة فانتازيا مرهقة في ظلمة الليل، وحين يصحون في الصباح ينسون ما حدث بالأمس وتستمر الحياة... أم إنه اختار الوقوف في مكان آخر لمراقبة فتاة أخرى، من أجل الهرب إليها، ونسيان حب الإشارة الذي يبقى مهما كان حب أعرجا لا يرجى منه اللقاء...

***

أحست في هذه اللحظة بقيمة وردية، التي كانت تقاسمها هذه اللحظات. فبالرغم من كونها لم تأخذ من هذه الحياة القسط الكبير من التجارب ولا العلم، إلا أنها تتقن فن الاعتناء بالمجروح والاهتمام بالحزين. أحست ربيعة في هذه اللحظة بأنامل وردية وهي تداعب شعرها وهي مستلقية في حجرها، حين تضيق بها الحياة. اشتاقت إلى حضنها الذي كانت في كل مرة تهرب إليه، فتجده واسعا دافئا حنونا، لا تمل منه. بقيت حائرة في أمرها، وقد غلبتها الدموع وكأنها تذكرت في هذه اللحظة القصيرة، كل المآسي التي مرت عليها. زاد شوقها إلى وردية، فحملت نفسها وهرولت بحثا عنها. طرقت الباب، ووقفت تنتظر، فربما كانت تراقبها من ثقب الباب، ولا تريد لقاءها، بعد كل ذلك الجفاء الذي حصل بينهما. وبينما هي غارقة في هذا التفكير، حتى خرجت إليها وردية، وحملتها في حضنها دون سؤال. لقد اعتادت على أخذها في حضنها كلما رأت دموعها، أصبح الأمر آليا بينهما. قليل هم من يعرفون لحظات حزننا، وقليل هم من ينسون لحظات الاختلاف، ويتجاوبون مع واقعنا دون عتاب. أغلقتا الباب وعم السكون بينهما، وتعالى صوت ربيعة حتى دوى المكان، وهي غارقة في حضن وردية، التي تضامنت معها في لحظة الضعف التي يمر بها كل واحد منا. فالمحظوظ من وجد من يربّت على كتفه، ويلملم دموعه وهو واقع في لحظة الإنكسار.

***

تستمر الحياة، وتجتمع فيها التناقضات، بين مهلل للفرح، وآخر حزين ينتظر شعاع الأمل في الظلام، بين سعيد فرح يقفز في السماء، ويدوي المكان من شدة فرحه، وبين من مسه الضر وهو ينتظر شفاءه، تتوزع أيامنا بين هذا وذاك، ولا تستوي على شيء ونراقب أيامها وهي تتداول بين الناس، كل ينتظر دوره، كحال الوقوف أمام معصرة الزيتون أو مطحنة القمح.. الكل يقف حتى يحين دوره، وهكذا دواليب الحياة... بعد تلك اللحظات والسقطة المدوية لربيعة في حضن وردية بعد طول غياب، بكت خلالها بكاء شديدا، حتى ظنت وردية أنها سوف تغتسل من دموعها، لكنها بقيت صابرة تشدها إليها، حتى انتهت من تجفيف ينبوع حزنها ثم جلست بالقرب منها... تداولتا نقاشا طويلا بعيدا عن شؤون المرأة في هذه الحياة، فقط الحديث عن غياب صاحب النظارة المجهول الذي تجاوز إلى حد اليوم، أيام الغياب التي كانت ربيعة تعدها وتعرف عددها، وحين تقف في الشرفة تقع عيناها عليه، وهو يبتسم من بعيد، غير أنه هذه المرة، لم يكن كذلك، فمنذ ذلك اليوم الذي زارت مكانه رفقة وردية، لم يقف في هذا المكان.. تساءلت وردية: ربما كان يراقبها من بعيد دون الحديث إليهما، لكن لو كان كذلك ما كان يمنعه من الجري وراءهما، كأي شاب يغازل فتاة منذ زمن طويل عبر الشرفة، وهي اليوم تتمايل أمامه.. هل كان سيضيّع تلك اللحظات؟ غير أنها كانت تردد في نفسها: لا أعتقد. فلو كان كذلك، فلن يفوّت لحظة النظر في محيا ربيعة عن قرب، حتى دون

الحديث إليها، لكن، كانت بعض الأفكار توسوس إليها: هل خيّر البعد والابتعاد فجأة، بعدما وقعت عيناه على ربيعة وهي عرجاء فليس كل الرجال يتقبلون النقص في الأنثى. كانت تحاكي نفسها وهي تنظر إلى ربيعة غارقة في التفكير، وهي تدلك أناملها، وتأكل أظافرها كبنت تنتظر نتائج دراستها... بعد صمت طويل بينهما، التفتت ربيعة إلى وردية، وسمع طرق خفيف، فهرولت وردية إلى الباب، فوجدت حدة تحمل بعض الجرائد وهي تبتسم. سألتها عن ربيعة، فلم ترد عليها، والتفتت إلى الداخل. فهمت حدة الرسالة دون الحديث فطلبت منها أن تخبرها بأنها رجعت وسوف تخرج وتعود مساء... أغلقت وردية الباب، دون أن تكلمها، أو تنتظر ذهابها من أمام الباب، ورجعت إلى الغرفة، وهي تبتسم. عرفت ربيعة أن حدة هي من طلبها، غير أنها لم تبال... تعرفين وردية أن العالم موحش، حتى وإن أظهر إلينا بعض جماله، لقد كذبت على نفسي منذ زمان، حين صدقت أن من الرجال من يريدني، بالرغم من كوني لم أطمع في هذا ولم أفكر فيه يوما، لكن ذلك الشخص الغريب، استطاع أن يحرك شيئا بداخلي، لا أدري ما هو.. ربما هي أنوثتي التي كان ينفر الجميع منها، وكانت سببا في شقائي في الدشرة، أو الحنان الذي طالما أردته من أقرب الناس إلي، ولم أصل إليه ولم يتحقق معي، فقط من ذلك الرجل الغريب، الذي أنقذني من ذلك العالم الصامت الذي يقتل الناس في خلوتهم وفي معزل لا يعرف عنهم فيه أحد، هرم الناس فيه قبل الوقت، وظهرت على محياهم تجاعيد ليست بتجاعيدهم، لكن

وجوههم تزينت بها رغما عنهم... قبل أن تكمل الحديث الذي حرك مشاعر وردية وهمت بالبكاء، حتى طرق الباب مرة أخرى، كان بمثابة قطع لهذا الحديث... ضغطت وردية على شفتيها، وحملت نفسها بقوة إلى الباب... وهي تردد: "وشبيها هذي المريضة"... وفتحت الباب حتى كادت أن تقتلعه..

***

حين فتحت وردية الباب، وقعت عيناها على ولد صغير، يظهر على ملامحه نوع من التردد قبل الكلام. سألته وردية بنوع من الشدة: ماذا يريد، بصوت مسموع، غير أنه بقي صامتا لا يكلمها وعيناه تتفحصان ما يظهر للغرفة من الخارج، كأنه يبحث عن شيء بالداخل. جذبته إليها من كتفه، لكنه قاوم الدخول، فلا هو تكلم ولا هو سأل، فقط بقي ينظر إليها وعيناه تتجولان هنا وهناك. استغربت منه، وطلبت من ربيعة الحضور. وحين وقفت عند الباب، مد يده إليها برسالة، مطوية، كان يشدها بقوة كأنه كان يعصرها، ثم انصرف دون كلام. نادته، لكنه غادر المكان قبل أن تلحق به...

***

جلستا جنبا إلى جنب، تأكلان هذه الرسالة بعيونهن، وهما صامتتان. كان واضحا عليها نوع من التردد في فتح الرسالة، فربما أخطأ ذلك الولد العنوان، كما أنه ليس هناك من يرسل إلى هذا البيت رسالة.. فلم يحدث من قبل أن وصلت رسالة إلى هذا المكان.

لكن، بعد كل هذا التردد، قررت ربيعة فتح الرسالة، لتعرف ما تحمله.. ارتجفت يداها، ولم تستطع فتحها، فأعادت وضعها على الطاولة. في هذه اللحظة، مدت وردية يدها إليها وحملتها ببطء، كأنها تخاف من وقوعها. نظرت إلى ربيعة بضع ثوان، كأنها تطلب منها السماح لها بفتحها، ثم مزقت أحد أطراف الظرف، وأخرجت ورقة من داخله، وقدمتها إلى ربيعة التي لا تزال يداها ترتجفان، مثل عصفور صغير يقاوم تحت أمطار الشتاء..

"لم أكن أعرف أنك عرجاء.." هو أول ما وقعت عينا ربيعة عليه من محتوى هذه الرسالة.. جملة أعادت إلى ذهنها كل ما قاسته في الماضي، من عرجها البيّن الذي يظهر للعيان، الذي كان أضحوكة بين زملاء الدراسة، الذين هجرتهم رغم ذكائها واجتهادها وتفوّقها عليهم.. أعاد إلى ذهنها صياح والدها، الذي كان أول من لقبها بهذا اللقب، وهو عائد من الغابة ينادي عليها لتستقبله. جملة كان أثرها موجعا، مثل ضرب السياط أو وخز الإبر، أو كمن أدخل آلة حادة في خصرها. لاحظت وردية هذا التأثر على محياها، فشدت على معصمها... جملة عجزت ربيعة بعدها عن إكمال ما جاء في الرسالة. فكاتب الرسالة، يظهر أنه لم يستعمل الفواصل ولا النقاط، ويظهر هذا من تلاصق الكلمات، كأنه يريد استغلال كل فراغ في هذه الورقة، حتى أصبحت تزدحم بالكلمات... أعادت ربيعة إلى ذلك الزمان الذي قطعت الوصال معه. هكذا هو ماضينا، يبقى يراقبنا من بعيد، وحين تحين الفرصة، يرجع لكي يعكر علينا حاضرنا. رمتها

أمامها وشدت على رأسها. أحست بدوار يحوم بها في كل زوايا الغرفة. استلقت بجانب وردية، التي أدركت أن الرسالة من صاحب النظارة، وهذا واضح للعيان. بقيتا على هذه الحال لا تتكلمان، كل منهما شاردة في تفكير. وبعد هذا السكون الذي حل بينهما، حملت ربيعة تلك الورقة، كأنها تحمل نعشها بين يديها، واختلت بنفسها دون كلام. ترددت في إتمام ما جاء في الرسالة، لأن بدايتها توحي بأوجاع كثيرة تحملها، وضربات كلماتها سوف تكون حتما مؤلمة أكثر من ضرب السياط.. لكنها، تشجعت وأعادت فتحها، بعدما اعتدلت في مكانها...

رجعت حدة مساء إلى البيت كالعادة، تحمل الكثير من الأوراق والصحف، تظهر كأنها فتاة في جسد امرأة أثقلتها الحياة بتناقضاتها، ظهرت عليها بعض التجاعيد التي بدأت تأكل الجمال من محياها، كما تأكل الدودة أوراق الأشجار، يظهر من تحت تلك التجاعيد، أنها كانت فتاة جميلة، يتزين وجهها الدائري بعينين زرقاوين، وأنف طويلة، وشفتين امتصتهما كثرة الكلام والحديث في مواضيع المرأة وكل ما يدور حولها، بلباس عصري وكعب عال يسبقها صوته قبل أن تصل إلى المكان. نادت ربيعة فلم تجبها، لكنها كررت النداء حتى استجابت لها، بصوت ثقيل، كأنها تحت الغطاء وقفت عندها ورمت الحزمة من الورق والصحف أمامها فوق الطاولة، فلم تستجب كعادتها، فأحست حدة بأن في الأمر شيئا. لم تسألها ولم ترد معرفة السبب، لأنها تعرف الحدود، فإن لم تحدثها

عما يجول بخاطرها وما يثقل صدرها، وما يعصر قلبها، لن تتجرأ على معرفة السبب، وهي من الأمور التي تعتقد حدة أنها من ضوابط الاحترام، فيجب احترام الطرف الآخر، حين يصمت وحين يتكلم ولسنا مجبرين على معرفة كل ما يجول بداخله، إن هو رفض الحديث... استطاعت ربيعة أن تحفظ الكثير من الدروس، دون أن تطلعها عليها حدة، وهذا من خلال السلوك والتصرفات. تعلمت عنها طريقة الكلام في الوقت المناسب، والصمت إن وجب ذلك، كما أخذت عنها برودة الأعصاب في النقاشات، فلا شيء يستحق العناء في هذه الحياة، رغم تأثرها بما يدور حولها. تعلمت ترتيب الحوادث في ذهنها، ومقارنة الأحداث واستنتاج النتائج انطلاقا من المعطيات انفتحت معها على الكثير من القضايا التي لم تسمع عنها من قبل استطاعت من خلالها أن تعيد رسم مخطط لشخصيتها، يتجاوب مع كل الأحداث...

اعتدلت حدة في جلستها، وهي تتصفح الجرائد بكل ذلك الاهتمام والعناية، وتلتهم الأحداث المكتوبة عليها، كما تلتهم النار الخشب، حينما وقفت إليها ربيعة عند الباب، وهي تحمل قطعة من ورق.. عرفت حدة دون أن تتكلم إليها أنها تلقت رسالة من مجهول وهو سبب ما هي عليه اليوم من الكسل والضياع. وبالرغم من كونها لا تعرف المرسل وما تحمله تلك الرسالة... لكنها، استطاعت أن تعرف هذا من ملامح وجه ربيعة، حيث أدركت طالع ذلك المرسول... كل الأخبار في هذه الحياة تترجم في ملامحنا، ولا يمكن لنا أن نخفي

شعورنا، حتى ولو اصطنعنا ذلك، وإن كان، فإنه لن يدوم، ولن يقاوم قوة تلك المشاعر بداخلنا، وينكشف أمرنا مهما حدث... هكذا هي حال ربيعة، التي أظهرت القوة في حضورها، وفي إرادة تجاوز ما يجول في صدرها، من شوق وحب، لذلك الغريب، الذي كان يشغل من حياتها ساعات طوالا، وتظل تراقبه من شرفتها، كأنها في قلعة للحراسة، حتى يمسي النهار وتقترب الشمس من الرحيل.. لكنها، في الأيام الأخيرة، أرادت في لحظة ما مسح ملامحه، عن طريق مغازلة الكثير من ملامح نساء مقاومات، عبر تلك الجرائد وقصاصات الورق، لكن ذلك الشعور بقي يراوح في صدرها، حيا لا يموت، رغم محاولة إخفائه بثوب كبريائها، إلى أن وصلت هذه الرسالة الملعونة، التي أيقظت ما بداخلها من آلام قديمة... جلست إلى حدة، ورمت إليها بتلك الرسالة، التي تلقفتها على عجل. وما إن فتحتها حتى لعنت كاتبها دون أن تعرفه، لعنا مسموعا وكلاما خادشا.. أظهر كرهها فعلا لما تسميه الذكر في حديثها. لاحظت ربيعة ذلك الوجه، الذي يغرق في التعب من يوم طويل، بعدما اشتعلت فيه ملامحها غطت تلك التجاعيد، بعدما احمر وانتفخ وريد رقبتها حتى كاد أن ينفجر، ثم وقفت قبالة النافذة التي تطل على الجانب الآخر من العمارة، وهي تضع يديها على خصرها دون كلام...

***

سماع محطات ألم الآخرين قد يوقظ آلامنا. والجلوس إلى من بهم ضرر قد يذكرنا بضررنا، فلا نستطيع أن نحتمل، وقد تأخذنا

العزة بالدفاع عن غرباء نشعر بأنهم جرحوا في كبريائهم.. تتشابه صور الألم في الحياة، وحين تجتمع تحدث بركانا، يرمي بحممه على محيط المكان... طلبت حدة من ربيعة إعادة قراءة هذه الرسالة بصوت مرتفع، حتى تسمع ما خطت يمين ذلك الأحمق فيها. تفاجأت ربيعة من الطلب وترددت، لكنها توسلت إليها أن تفعل من أجلها.. فتحت ربيعة رسالتها، التي بدأت تتمزق من كثرة الشد، وحلقت بصوتها الذي لامس سقف الغرفة، وظهر عليه نوع من التعب...

"لم أكن أعرف أنك عرجاء... ولو كنت أعرف ما وقفت قبالتك يوما واحدا. هل كنت تعتقدين حقا أنني سوف أرضى بفتاة عرجاء لا تستوي في مشيتها، هل كنت تعتقدين حقا أن الحب أقوى من الواقع، أفنيت الكثير من الوقت هنا واقفا أنتظرك، وحين خرجت لأول مرة، رأيت ما كنت تخفين وراء جدران بيتك.. مسكينة أنت ومسكينة من تفكر مثلك. يكفي أنك أنثى، وأحفظ للقب أنثى مني نختار نحن الرجال منكن ما يعجبنا، فكيف رأيت في نفسك من مستواي، وإحدى قدميك لم تلامس الأرض كاملة يوما، لا أنكر أنك تحملين من الملامح ما يعجب أي رجل أو شاب، لكن هذا لا يمكن أن يشفع لك لكي تكوني امرأة كاملة بالنقص الذي يشوه جسدك أقر لك بأنك شجاعة لمحاولة الإيقاع بي في شركك، رغم أنك عرجاء، بيّن عرجك، ولن يستوي يوما، وفي نفس الوقت، أعيب فيك جبنك.. فلو كنت صادقة حقا لما حاولت معي، وعلى الأقل كنت قادرة على البوح بسرك بدلا من الاختباء في شرفتك، ألم تخافي

أن الأيام سوف تكشف سرك... أنت عرجاء، وسوف تبقين عرجاء مهما حاولت، ولن تستطيعي لبس كعبك العالي يوما، فلا تحاولي...".

كنت أود أن يغرس سكينا حادة في قلبي، على أن يذكرني بعرجي هذا مرات ومرات ومرات. لقد حاول الكثير من أطفال القرية المساس بشرفي مرات ومرات في الغابة، بعيدا عن أعين الناس، لكن لم يؤلمني هذا الأمر أكثر من هذه الكلمات. حقيقة، بعض الكلمات وقعها أشد من وقع الرصاص، أعرف أنني عرجاء، ولا أريد من يذكرني بهذا، سواء شفقة أم استعلاء... غابت حدة عن الحضور بتفكيرها وحلقت عاليا، كأنها ليست موجودة، فالرسالة حلقت بها بعيدا وأوصلتها إلى زمان عانت فيه من قهر الرجال... وهي المرة الأولى التي بقيت فيها صامتة دون حركة، تنظر إلى الأفق، ترتجف من كلمات ربيعة قبل كلمات الرسالة، لخصت فيها كل الحزن والأسى كونك امرأة يحمل علة ظاهرة، فلا رحمة ولا شفقة من رجل يدعي في نفسه الكمال... لم تعلق ولم تقل كلمة، فقط بقيت شاخصة البصر، كأن أحدا شد لسانها... وبينما هما كذلك، حتى قفزت إليهما وردية، ترتجف، وحملت ربيعة من كتفها، وأشارت إليها إلى الطريق العام، هناك كان يجلس ذلك الغريب، الذي حمل مسدسا من كلمات أفرغها في صدر ربيعة، ولمست شظاياها حدة ووردية... لكن ماذا يريد هذا بعد هذه الرسالة، أم إنه يريد أن يرى أثر الدماء حتى يشفي غليله، ويتأكد من إصابته البليغة للعرجاء، كما رددها عدة مرات...

***

نحن نشترك في نفس الألم، لكن ألمي أشد وقعا وعمقا من ألمك ربيعة... فاجأتها حدة، وهما تتصفحان بعض جرائد الأمس. هي المرة الأولى التي تقر فيها بأنها تحمل بداخلها ألما يحدثها في خلوتها، ويراقبها وهي تعتصر في عزلتها، ألم يحتمي بداخلها.. فقد سكنها منذ زمن بعيد، قطع الطريق أمام سعادتها وحولها إلى جثة تراقب الفناء وهي تحتضر، وترجو النجاة من أجل أيام أخرى في الحياة.. قساوة ما عاشته وعايشته، جعلت منها امرأة دون إحساس تتحسس به ماعدا ضوء الصباح عند خروجها، وتعود مساء بعدما يسدل الليل ستائره، وهي تحمل الكثير من الأوراق، حتى أصبحت غريبة في حيها لا يعرفها أحد، ولا يذكرها الناس في حديثهم، فقط تلك المرأة الغريبة التي تسكن الطابق الثاني من العمارة. أحست ربيعة، في هذه اللحظة، بأنهما لا تتقاسمان السكن فقط، بل تتقاسمان بعض أحاسيس ظلم البشر، وربما هناك الكثيرات مثلهما، ممن وقعن في فخ الشعور الخادع والإحساس المصطنع.. لكن، يظهر أن جرحها غائر، لا يرجى منه الشفاء، وإن شفي فسوف يترك أثرا واضحا، كوشم كبير يظهر من بعيد.. ألم ربيعة ومعايرتها من ذلك الذي كان بالأمس عصفورا يغرد في مجرتها، كان بمثابة شعلة أيقظت ما تحمله حدة بداخلها. هكذا تنتفض الأحداث من حولنا. فلسنا مجبرين على معرفة كل شيء في نفس الوقت، ممن يعيشون حولنا، أو ممن نجلس إليهم. فكل يوم يحمل الجديد. فقط، نترك

لهم حرية التعبير والوقت الكافي، حين تحين لحظات البوح عن مكنوناتهم وما يثقل سرائرهم، ولا نجبرهم على إطلاعنا على كل تفاصيل حياتهم، سواء المؤلمة أم السعيدة. فالأيام وحدها كفيلة بكشف هذا مع مرور الوقت، حين يرون أنفسهم مستعدين لهذا وأننا أهل لثقتهم، من أجل النبش في ضعفهم، الذي كان يأسرهم منذ زمان، وبقي يشد أنفاسهم كلما جلسوا إلى من هو هائم مثلهم لا يعرف الخلاص...

توزعت لحظات سرد حدة لحياتها السابقة بين كل أنواع الألم من اللحظة الأولى التي التقت بالمسمى سعيد. ذلك الرجل الذي كانت الكثير من فتيات جيلها يحلمن بمداعبة شواربه الغليظة وصدره العريض القوي، الذي تنكسر فوقه نظراتهن، مثلما تتحطم أمواج البحر على صخور شواطئها. تعرفت عليه بعد نقاش طويل عن الكثير من قضايا المرأة. كانا نقاشا حادا بينهما، وقفا حينها الند للند في معالجة مشاركة المرأة في بعض شؤون الحياة، أحب فيها جرأتها، وقدرتها على المراء الذي لا ينتهي وكل يوم تحمل معها الجديد، تحول الحديث بينهما من تلك اللحظة إلى نوع من الغزل غير المعلن، إلى لحظات للهمس الذي يسري في القلوب، ويحرك الأحاسيس وهي نائمة، لم تكن تبحث عن الحب أو الزواج، لكنه استطاع أن يحيط بها ويأسرها من كل مكان، وأن يبقيها بجانبه جامدة دون حركة، تراقب ملامحه وهو يهز كيانها، حتى استسلمت له طوعا لا كرها، وكبّلها وأخذها إلى وكره، دون عناء، حتى أصبحت

سجينة عنده، يراقبها وهي تداعب أغلالها، لا تقاوم لحظات غزله التي لا تنتهي، انقلبت حالها، وأصبحت لا تبالي بشؤون المرأة من حولها، بل أصبحت تعتني بنفسها من أجل تلك اللحظات التي تنسج معه أشعارا من كل الكلمات، وموسيقى من كل الألحان ويتخاطبان بكل اللغات، سواء بالكلام المسموع أم من خلال النظرات. أصبحت لهفتها إلى لقائه أكثر من لهفتها إلى تلك التجمعات في الأماكن الراقية. أصبح يجذبها من المغناطيس الذي يحمل معه كل المعادن في طريقه، انكسرت جناحاها في حضنه، وتفتت كبرياؤها، مثلما تتفتت حبات البرد على النوافذ في فصل الشتاء...

كانت ربيعة تراقب حدة وهي تسرد قصتها دون توقف ولا فواصل، كأنها حفظتها عن ظهر قلب، أو هي المرة الألف، التي تحكيها...

رغم ما تحمله من قوة في ملامحها وانضباط في سلوكها، وتنظيم في حياتها عموما، ووقفتها المعتدلة مثل عسكري في ساحة العلم توحي بانتظارها الطويل في الكثير من محطات الحياة، إلا أنها حينما وقفت عند ماضيها المؤلم مرة أخرى، ظهر ضعف الأنثى التي تعير من بعض البشر، بأنها خلقت من ضلع أعوج، بانت على محياها لحظة الضعف التي نحتاج فيها إلى حضن يحملنا، ويكفكف دموعنا، انحنت لأول مرة أمام ربيعة، معلنة عن استسلامها للأوجاع، وذهبت إليها مكبلة الأيدي، تبعتها بعض دموعها التي رشت الطاولة الزجاجية الموضوعة أمامها، تساقطت زخات زخات، مثل

دموع الشمع، وهي تقاوم النسيم الذي يزيد من ألمها قبل ألم النهاية بعد لحظات من اشتعالها، لحظة ضياع أخرى بين ملفات الماضي الذي كان واضحا من الأول أنه يأسرها بكل الأغلال، لكنها حاربته وقاومته بعدم الاهتمام والانصياع إليه، وهو يغازلها في الكثير من اللحظات...

بعد لحظات من الهدوء، شاركتهما وردية هذا الموعد، الذي لم يكن في الحسبان. استطاعت أن تقف على حقيقة حدة، وما تحمله من ألم.. فترات متقطعة من الحديث والتوقف عند الكثير من التفاصيل، أنستهما رسالة ربيعة ما حملته من إهانة رجل غريب آخر تسلق على حياتها عبر الشرفة وعيرها بالعرجاء...

"لا أنكر أنني تعلمت عنه الكثير من الحيل في هذا المجال استطعت أن أصل إلى الكثير من الشخصيات، وأجلس في الكثير من الأماكن الراقية. كنت أعتقد هذا بالمجان، لكنه للأسف كان غالي الثمن في الأخير، حيث كانت نهاية حبنا إن اعتبرته حبا، لا خداعا مرسوما في شكل لحظات من الغباء والاستسلام، وهو ما يجب على النساء عدم الوقوع فيه، مهما كان الثمن ومهما كان قدر أو مكانة الرجل، لأن أغلبهم يشبه القمر، لديهم دائما جانب مظلم وهو ما لم أنتبه إليه مع سعيد، الذي أوهمني بحب لا ينتهي، وعشق سوف يسمع به في كل الأقطار، ومواعيد لا تخطر على قلبي ولم تصل إلى مسامعي من قبل، فقد كنت متربصة في ميدان الحياة،

رغم أنني كنت أتمتع بقوة الحضور والجدال، وعدم الاستسلام في الكثير من المناقشات.. وهو ما كان فاتنا بالنسبة إليه، فربما كان من البداية يبحث عن لبؤة صعبة المراس، من أجل إذلالها، بعدما عجز عن قهرها في الميدان. هكذا بعض الرجال، حينما تشق عليهم الأنثى يأتونها من الجهة التي ربما تضعف منها، سواء بمحاولة الإيقاع بها أم الطعن في شرفها، وغيرها من الطرق التي يستخدمها بعض أشباه الرجال، أو الذكور بأدق تفصيل، وهو ما حصل معي... بعد كل ذلك الكم من الكذب والاصطناع، الذي كان يتقنه، اكتشفت أنه متزوج وأب لثلاثة أطفال.. رجل من دشرة بعيدة، تأقلم بسرعة حياة الأضواء، واغتنم فرصة بعده عن أهله من أجل ممارسة هذه الألاعيب، وربما أكون أنا المرأة المائة، التي أوقعها في شراكه.. الغريب، أنني لما سألته لما لعب معي هذا الدور، أقر لي بأنه كان يحتاج إلى امرأة حسنة المظهر طليقة الكلام، لبؤة لا تخاف دخول الأماكن المظلمة، من أجل حملها معه في كل مرة يريد عقد لقاءات مع بعض أكابره... جعلني وسيلة يتأبط ذراعي أمام أصحابه ويتفاخر بي أمام زميلاته، وربما كان يبيت ثملا يحكي لهم قصص خلوتنا في بعض الأحيان... بعد هذا العرض الرهيب الذي أدهش ربيعة ووردية، انسحبت في صمت..

***

جلستا إلى بعضهما، وعمّ السكون، كل غارقة في التفكير، بعدما أتمت حدة قصتها مع سعيد، ثم انسحبت في هدوء، رغم الألم

القاتل الذي تحمله بين أضلعها، والذي لا يزال يهز كيانها كلما تذكرته، إلا أنها لم تسقه ولو بدمعة واحدة، على الأقل أمامهما وهو ما أرادت ربيعة معرفته. في الغالب، الأوجاع والآلام تترجم في لحظات للشهيق والبكاء، كمن يريد أن يفيضها في شكل سائل من داخله تكون الأعين وسيلة لتدفقه، لكي يرتاح حامله، لكنها لم تفعل ذلك، تساءلت ربيعة، هل تجاوزت مرحلة البكاء على أطلالها؟ يا ترى، هل بكت على حالها ليالي وأيام، حتى جفت دموع هذا الألم؟ أم أنها حينما استفاقت من غيبوبتها، وهي ملقاة في حضن ألمها وجدت أن هذا سعيد، لا يستحق كل هذه الدموع؟ أم أنها امرأة قوية كلما طعنت، كلما جذبت من جسدها القطعة الحادة التي طعنت بها وهي تبتسم، ثم تكمل سيرها في الحياة؟ أسئلة كانت تجول بداخلها، ولم تجد من يجيبها عنها، ولا يمكن لأحد أن يفعل هذا، إلا حدة نفسها، لكي تحس بالصدق منها، وليس مجرد تخمينات كما يفعل الكثير منا، في التعليق على الأحداث التي لا تخصهم، تبقى فقط مجرد اجتهادات، يربطها بتجارب سابقة، لكن التجارب الإنسانية لا يمكن تعميمها فكل واحدة، يجب دراستها على حدة، سواء كانت المعطيات مختلفة أو نفسها، لذا لا يمكن للأحداث أن تأخذ نفس الطريق على حد اعتقادها... في هذا الوقت كانت وردية معلقة الفكر والذهن في أمر آخر، إذا كانت حدة المرأة المثقفة التي يظهر عليها ذلك الرخاء في الحديث والكلام، وكعبها العالي الذي يسافر صوته قبل وصولها، أينما حلت بين الناس

وتبقى الأعين مشدودة إليها، فقط لأنها تستطيع أن تلوي عنق كل من يحوم حولها، حدث معها هذا، ووقعت مثل أسيرة، منع عنها الماء والأكل في سجنها، وراوغها ذلك الرجل، وسجل عليها من نقطة الزاوية، أو في وقته الضائع. ماذا لو كانت هي، الفتاة المسكينة التي لا تتقن حتى فن الكلام، فقط تحفظ بعض الكلمات البذيئة والنابية، التي تعلمتها من الشرفة وهي تتحدث إلى جاراتها. لا تستطيع التفكير في ملامح رجل حتى في خلوتها، لأنها تخاف من الوقوع في أسر أحلامها، والأحلام مع مرور الوقت حينما لا تتحقق تتحول إلى آلام موجعة... هل انقذها الله من مخالب الرجال الذين أصبحوا اليوم وحوشا ضارية، ينكلون بكل امرأة صادفتهم في طريقهم... اليوم هي شاهدة على خيانة رجلين اثنين أحدهما سمعت عنه، والآخر تعرفه وراقبته مع حبيبته، وهو يرسل لها القبلات مع نسيم الصباح، ويعطر يومها كلما جلس في ذلك المكان، لقد تعلمت درسين اثنين مختلفين، الأول لم تحضره، لكنها شعرت به، ولامست قسوته حتى ولو كان اليوم مجرد ماض وأطلال لا يمكن أن تعود فيها الحياة، والدرس الثاني جلست إلى قائده وهو رجل متعجرف يرى في نفسه الكمال حين خاطب صديقتها الوحيدة بتلك الكلمات التي لا يزال دويها يجول في غرفتها مثلما يبقى دوي وصدى الرصاص يسبح في الكهوف، كانت تكره الرجال واليوم أصبحت تمقتهم إلى درجة الغثيان، إلى درجة أنها تود لو تفطر على قلب كل رجل وتبقى تراقبه وهو يسبح في دم خيانته، ويعتصر ألما وتمنع عنه كل وسائل

النجاة... عرفت اليوم أن الحياة لا تعطينا من عدم، فكل خير مؤجل له أسبابه، لا يمكن للإنسان أن يعرفه، بل يرضى بما قسم له، أدركت أن الرجل في اعتقادها مهما علا شأنه أو زادت قيمته يبقى ذلك الوديع الذي يختبئ تحت جلد ذئب، يظهر أنيابه في الوقت الذي تثق فيه المرأة،

فينقض عليها كما تنقض الوحوش على فريستها...

كرهت ربيعة شمس الظهيرة، لأنها كانت تطرق على شرفتها كل يوم، تذكرها بموعدها مع الغريب صاحب النظارة، صارت لا تطيق الوقوف على هذه الشرفة المشؤومة التي أرسلتها في يوما ما، إلى حضن رجل مخادع، متعجرف، أذلها كما تذل السجينة في سجنها روضها حتى أصبحت ملكه، لا تفكر إلا فيه، ولا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة خارج أسوار مملكته، حملها بين يديه وسافر بها إلى السماء، وحين استفاقت ووقعت عينها في عينه واكتشفت مكره ألقى بها من فوق السحاب فسقطت على الأرض جثة هامدة... أعادت في لحظة من اللحظات، تلك الأيام والشهور التي قضتها وهي تقف على الشرفة، كحارس المدينة يراقب كل غريب، لا يغمض له جفن ولا يتغيب عن منصبه، هكذا كانت تراقبه من وراء سياج العمارة، إلى الشارع العام، أيام كثيرة، لم تغفل عليه لحظة واحدة لكنها حين نسيت نفسها مع حدة، رد لها جزاء هذا الغياب، ومرغ أنفها في التراب، برسالة كلماتها مزدحمة دون فواصل، اختار لها كل الألفاظ، التي أدمت حاضرها، وأحيت ماضيها المؤلم، وشوشت

عليها مستقبلها، لم تستطع أن تستفيق من ذلك الضرب المؤلم والموجع مثله مثل السياط، ارتسمت في نفسها وكبريائها كما ترتسم ضربات والدها على جسدها مثل الأوتار...

***

...كانت ذكرى ذلك اليوم، من الذكريات السوداء، التي مرت على هذا البيت منذ وصول ربيعة إلى هنا، تقاسمت من خلالها أوجاعها مع أوجاع حدة، التي لم تكن تجلس لها منذ وصولها، لكنهما مع مرور الوقت أصبحتا قريبتين، تتقاسمان اليوم نفس الضرر، وهي خيانة رجل، ووقوعهما أسيرتين عند من لا يستحقهما، اختلفت ملامح الرجلين، اللذين شربا من يديهما علقما وسما ناقعا حتى ارتويا، لكنهما اجتمعا في الخداع والمكر وفوق هذا مكر الذكورة...

أسدل الستار على هذا المشهد الدرامي، الذي كان شاهدا على كبوتهما، وكان واجبا عليهما، القفز إلى الجانب الآخر من الحياة، فلا يمكن لهما أن تقفا مكتوفتي الأيدي ومعصميهما مجروحين من قوة الشد، بعد أسر طويل في ملامح رجلين، ومكسورتي الجناح تخافان التحليق. النظر إلى الهزيمة هو إضعاف للروح وللعزيمة، لذا لا يجب الوقوف عندها بعد الانكسار، يجب جمع ما تبقى من الكبرياء، وجر بعض من الكرامة، وتسجيل نقاط الضعف، ثم الرحيل، هكذا لمن يريد تخطي بعض مراحل الانكسار في هذه الحياة، الحياة لا تكتب في صفحة واحدة، بل في صفحات عديدة، لا تنتهي إلا بانتهاء الأجل وكلما تمزقت صفحة وسقط رقم من حياتنا، يجب أن ننتقل إلى

الصفحة الموالية، واختيار رقم آخر دون انتظار، فربما يكون رقم حظنا... النجاح والفشل خطان متوازيان لا يلتقيان، لذا يجب على كل واحد منا أن يختار ما يليق به، فخير لك أن تفشل وأنت تحاول، على أن تكون فاشلا دون محاولة... اجتمعتا للمرة الأولى على قهوة الصباح، تعالجان حدود أكواب القهوة بالتفكير دون كلام، ذاب ما كانت تحمله وردية في صدرها لحدة، بعدما حضرت قصة الخيانة التي تخنقها يوما بعد يوم، ولم تستطع الخلاص منها منذ زمن ولو بالكلام فقط، حتى جاءت هذه المناسبة، فقذفتها كما يقذف الحيوان الخرافي النار من فمه، فيحرق كل ما يحيط به، كانت تراقبها وهي تتأمل في شعاع الشمس، الذي دخل من شق صغير في النافذة كأنه يريد الحضور عنوة، ليسترق السمع عن جلسة النساء... أما ربيعة فكانت تداعب يد فنجان قهوتها، وهي تتمتم بكلام غير مسموع، كأنها تقرأ تعويذات مشعوذة، ثم انفجرت بضحك هيستيري تبعتها حدة ووردية... وانتهى هذا اللقاء الصباحي الذي لم يحدث من قبل....

***

إذا كان الرجل لا يقف على أطلاله عندما تهزمة امرأة، ويعجل بالبحث عن أخرى، من أجل الانتقام أو نسيان جرحه، وإعادة إغلاق الشرخ الذي هز كبرياءه، فنحن النساء كذلك، خصرنا ليس للبيع، وشرفنا صعب المنال، حتى وإن وقعنا فيه خطأ، فليس عيبا أن نقع في وحل الخطيئة ونحن لا ندري، لكن العيب أن نقع مرة

أخرى ونلدغ من نفس الجحر، لقد خدعنا حينما رسموا لنا صورا جميلة، عن مكارم الأخلاق والشرف والوفاء، وحين كذبوا علينا باسم الرجولة، ونوموا بها، كما ينوم المريض بالمغناطيس، أرادوا أن يسوقونا إلى مربط الرذيلة، لكننا استفقنا قبل فوات الأوان... كانت هذه الكلمات أول ما بدأت به حدة يومها وهي تقف أمام المرآة تعيد رسم ملامحها الجميلة، وربيعة لا تزال مستلقية في سريرها وذراعاها يحملان رأسها المثقل من التفكير، وهي تراقب السقف الذي بدا لها بعيدا وهي تراقبه، دون أن ترد على حدة، لكنها التفتت إليها، وأمرتها بتحضير نفسها للخروج... حينها فتحت ربيعة ذراعيها كأنها تريد سماع مرة أخرى ما طلبته منها، لاحظت حدة دهشة ربيعة في المرآة أمامها، فانفجرت ضحكا منها، لأنها عرفت أنها لم تصدق ما سمعته، لكنها أعادت عليها الطلب، هرولت ربيعة إلى الحمام تجر الكسل، ورمت بنفسها تحت الماء، حتى يسقط عنها هذا التعب والخمول ونزعتهما كما تنزع الحية جلدها في الصيف، ورجعت إلى حدة وهي تبتسم، كأنها ضخت دماء جديدة في محياها... ناولتها حدة بعضا من ملابسها، فاستغربت ربيعة من تصرفها، وهي المرة الأولى التي تغير لباسها بلباس جديد منذ زمن بعيد، شدتها حدة من وجنتها وأمرتها بالإسراع من أجل الخروج... بعد بضع دقائق من إغلاق الغرفة على نفسها، من أجل اللباس، والفرح يهزها كما تهز الرياح أجنحة الطيور، خرجت على حدة فوجدت وردية تجلس إليها، وحين ظهرت أمامهما، هرولتا إليها يحملانها بالأحضان... ويحومان حولها

كما تحوم النحلة قبل الوقوع على زهرتها في الجنان... أحست ربيعة في هذه اللحظة، أنها أصبحت تنتمي إلى هذا العالم فعلا، بعد ما أسقطت عليها، بعضا من لباسها القديم الرث، الذي كلما لبسته أحست بماضيها يلاحقها عبره، لكن جاءت المناسبة التي سوف تتخلى عنه للأبد... بقي فقط الحذاء المناسب الذي سوف يعالج عرجها... لكنها تفاجأت حين أسرعت حدة إلى غرفتها وعادت إليها بعد ذلك، تحمل في يدها حذاء، صنع خصيصا ليخفي عرجها... سقطت ربيعة على ركبتيها والدموع تتدحرج مسرعة على وجنتيها فأخذتها وردية في حضنها، كما اعتادت حين تراها تذرف الدموع....

لحظات للفرح زينتها الدموع، أحست خلالها ربيعة بطيبة حدة وكرمها، تذكرت الرجل الغريب الذي حملها إليها، كأنه كان يدرك مكانتها عندها، كان يعرف أن مكان ربيعة رفقة حدة، فربما أحس بأوجه الشبه بينهما، لذا أراد أن يجمعهما ببعضهما، من أجل التعارف عن قرب، وربما يحملان نفس المشروع في هذه الحياة...

طلبت منها حدة ضرورة الإسراع من أجل الخروج، لحضور موعد مهم مع بعض الأشخاص، فارتمت وردية عند رجليها، وحملت الحذاء وساعدتها على لبسه، وربيعة مترددة في أن تكون وردية خادمتها اليوم، لكنها أصرت على فعل هذا من أجلها، مسحت ربيعة على شعرها، والدموع تتتابع على وجنتها مرة ثانية، كأنها اجتمعت في هذا اليوم من أجل النزول، لما لقيته من كرم....

أحست أن كل من كان في القاعة يراقبها، لكنه ليس كذلك، فهو إحساس الغريب الذي يلج لمكان لا يعرفه فيه أحد، فكل منشغل في القراءة، أو منزو مع صديق في زاوية يتكلمون كلاما مسموعا، لا توجد بينهم أسرارا، التفت الكثير من النساء حول حدة بمجرد ظهورها كأنها شخصية فنية أو سينمائية معروفة تحضر نفسها من أجل توقيع الأوتوغرافات لمن حولها، وهي ترد السلام والتحية لمن لم يستطع الوصول إليها.. اصطدمت ربيعة بالكثير ممن يقفون جنبا إلى جنب، يتحدثون كلاما مسموعا، لكنهم يعتذرون إليها بلطف وأذب، ثم ينصرفن... بقيت مشدودة البصر والذهن إلى ما يحيط بها، الكثير من النساء وبعض من الرجال فقط، وهو المجتمع الأول الذي تقف عليه، تكون فيه الغلبة لعدد النساء، يتكلمن ويتبادلن النكت والضحكات بصوت مرتفع دون أن يأمرهن أحد بالسكوت تذكرت في هذه اللحظة، حينما كانت أنفاس المرأة تكتم في السهرات المسائية في الدشرة، فلا يحق لها الضحك بصوت مسموع، وإلا التفت إليها الجميع بتلك النظرة الحادة، توحي بانتهاء سهرتها بالشتم وربما الضرب في بعض الأحيان، لأنها تجاوزت الحدود في اعتقادهم... اتخذت زاوية تراقب فيها هذا الحضور، الذي أصبح يتزين بالكثير من الوجوه النسائية، وهن يتداولن الكثير من الأوراق، ويقرأنها بتمعن كبير، تذكرت كلام حدة لها في البيت والشارع، وهي تجرها إلى هذا المكان أنه موعد مهم، يجب أن تحضره، من أجل الوقوف على الكثير من التفاصيل، وهو ما كان

لها، حيث عرفت انتماء حدة وقوة حضورها، وكذا شخصيتها والكل محيط بها، حتى ربما نسيت أنها حملتها معها إلى هذا المكان، لكنها كانت تطمئنها من حين لآخر، بالصبر والانتظار، فترد عليها ربيعة بابتسامة الخجل وهي لا تدري ما تقول، وكيف أصبحت واحدة من هذا الحضور النسوي الكبير... بعد هذه الفوضى التي دوت في المكان، وكل يدلي بدلوه فيما يحمله من ورق، صعدت حدة إلى مكان تستطيع مراقبة كل الحضور، التفت الكل نحوها، وفي لحظة قصيرة عمّ السكوت، كأنه وقت الصلاة، كانت حدة تراقب ورقة تحملها بيد واحدة واليد الأخرى على خصرها، والكل ينتظر ما تريد أن تقول، وبعد لحظات هزت المكان بصوت مرتفع دوى المكان... كلمات كانت في مجملها تمهيدا إلى إعادة تشكيل جمعية نسوية تهتم بكل شؤون المرأة، على أن تضم القائمة مختلف فئات المرأة، دون النظر إلى السن أو المستوى الثقافي والاجتماعي، وليس كما كان في السابق حين كانت بعض النساء محظوظات أكثر من غيرهن، وأن يصبح لها مقر وختم خاص بها... بعد هذا الخطاب المقتضب، الذي أعلنت من خلاله ميلاد حياة أخرى للمرأة في هذه القرية، نزلت وسارت بين جموع النساء وكلهن يربتن على كتفها، وهي تعيد الحركة، ويصفقن تصفيقا حارا لا يكون إلا للأبطال... وصلت إلى ربيعة التي بقيت شاردة في زاويتها تراقب ما يحدث حولها... حملتها ربيعة في حضنها وهي تبتسم، حدثها عن صوتها الذي هز زوايا هذا المكان، والذي يكون في الغالب هادئا عند حديثها إليها في بيتها...

سعدت كثيرا بهذا الموعد الذي فتح لها الأبواب على مجتمع نسوي لم تكن تدري أنه موجود حقا، ويمارس نشاطه دون خجل...

وصلتا إلى البيت، استلقت على سريرها وبعد لحظات، غطى شخيرها المكان، وهي لا تزال في لباسها، ظهر عليها التعب بعد هذا اليوم الأول الذي لامست فيه الكثير من الوجوه النسوية عن قرب، وقد كانت بالأمس ترى وجوههن على صفحات الجرائد... دخلت عليها وردية فوجدتها كما هي عليه، نزعت لها حذاءها دون أن توقظها، ثم ألقت عليها غطاء خفيفا، و هي تراقب محياها مشعا مبتسما،كأنها تعيش أول أيام حلمها... ظهر على ملامحها شيء جديد لم تره وردية من قبل، وهو بعض ألوان الزينة تداعب حدود محياها، وشعرها المستوي يغطي وسادتها... كانت تراقبها بذلك الاهتمام، كما كانت تراقبها دائما، حينما تجلس إليها وهما تتبادلان النكت في السهرات الطويلة التي لا تنتهي، وإلا وقد اقترب الليل من الرحيل، ليترك مكانه لنهار آخر يحمل الكثير لهذا العالم في طياته..

داعبت ملامح ذلك اليوم في حلمها، بعد عودتها مباشرة دون أن تنتظر الليل وسكونه، كان يوما جديدا كأنه يوم عيد ميلادها، ميلاد بين جموع النسوة، حين وقفت معهن مباشرة في مكان واحد تسمع حتى أنفاسهن، بعد ما كانت تراقبهن فوق صفحات الجرائد من بعيد، رغم ألم حذائها الجديد الذي لا يزال لم يحتو شكل عرجها إلا أن سعادتها بهذا اللقاء أنساها ألم الحذاء وكل ألم عاشته من قبل... لم تتكلم ولم تشاركهن الحديث إلا أنها أحست بهذا عبر

النظرات، التي تقاطعت مع أغلبهن في القاعة، نظرات أحست بها لأول مرة أنها نظرات حب ومودة، رغم أنها غريبة عنهن، لكنهن بادلناها الحب والاحترام، سواء عن طريق الابتسامات أو هز الرأس من بعيد كتحية على حضورها... استفاقت من هذا الحلم الذي كان امتدادا لواقع ذلك اليوم، وزاحم كل أفكارها وما تحملها برأسها، لم تستطع التوقف عن التفكير، في تلك اللحظات التي عاشتها لأول مرة، وهي تشم العطر النسوي في كل مكان ومن مختلف الأنواع وتراقب الكعب العالي، وهو يضغط على صفحات الأرضية التي تلمع ببقايا زينة النساء التي غطت المكان، ويحدث صوتا كأنه موسيقى تنسجم مع الكلمات والضحكات من هنا وهناك، بعدما اختارت أغلبية النسوة في هذا اليوم الجديد، الحضور بكعبهن العالي الذي دوّى في المكان...كانت تتفقد من حين لآخر عرجها وهل يليق به ذلك الحذاء، أم أنها لن تلبسه كما حدثها صاحب النظارة في تلك الرسالة، التي أصبحت اليوم في خبر كان، برغم جرحها الذي لا يزال يؤلمها حين تتذكره أو تمسح على ذكرياته مع ذلك الغريب الذي أصبح في يوم ما، جزءا من يومياتها لا تستطيع الاستغناء عنه، لكنه عاد من حيث أتى، أعادت مع حدة تلك اللحظات التي لم تكن تحلم بها أبدا، وقد كانت بالأمس تجر قدمها العرجاء في تتبع الأغنام والأبقار في الدشرة، لكن حدة كانت تنهرها في كل مرة، حينما تريد العودة إلى ذلك الماضي القاسي في حديثها، وتطلب منها ضرورة

التركيز على ما هو بين يديها اليوم، ولا تبقى مصلوبة إلى جدار ماضيها كما يصلب أسرى الجند في الحروب...

...أصبحت وردية تشاركهما الحديث، ولو عن جهل بما يدور في الواقع، إلا أنها تجاوزت ذلك الشعور الذي أسرها منذ زمان، بأن ربيعة تركتها لحالها بعد ما ألفت البقاء معها لساعات، أدركت حينها أن القدر كما حمل إليها ربيعة يوما ما، لكي تشفي غيظها ولو بالحديث فقط، من هذا العالم، لأنه اختار لها العزوبية على حد قولها، هو نفسه القدر الذي حمل حدة إلى حياة ربيعة، لتكمل مسيرتها، التي كانت تظهر منذ البداية، بأن الدشرة أو البقاء في هذا البيت لا يليق بها، بل خلقت لشيء ما يجب أن تقوم به... اعترفت لحدة ببغضها لها منذ البداية، منذ أن جالستهما في الشرفة لأول مرة، وأصبحت تجالسهما كل يوم بعدها، حتى خطفت منها ربيعة وهن يتداولن الضحكات، اعترفت كذلك بأنانيتها في هذا... ظهر عليها نوع من الهدوء، بعد ما كانت تلك الفتاة التي كانت حين تتحدث، تتلعثم ويتطاير اللعاب من فمها حتى يصل لمن حولها وتقول كل ما يقف على لسانها، دون أن تزن كلامها، كان الجو الذي يسود البيت في الفترات الأخيرة له الأثر الواضح على سلوكها، حيث اندمجت في طريقة الكلام والنقاش، برغم ثقافتها المحدودة، لكنها أصبحت توظف ما لديها من معارف في الحياة العامة، بشكل جيد كأنها تعلمت بالنظر ومتابعة ما يدور حولها من طرف ربيعة وحدة اللتان كانتا تتفوقان عليها معرفة وثقافة، لكنهما لم يشعراها يوما

بهذا التفوق في كل الجوانب، فقد كانت هي كذلك تسبقهما إلى تجفيف الدموع والربت على الكتف، والمواساة عند الحزن، السماع عند الحديث...

حفظت ربيعة الطريق المؤدية إلى ذلك المقر المؤقت، ولم تصبح مجبرة على الذهاب مع حدة التي تتخلف في بعض الأحيان عنها لامست خلالها الكثير من الوجوه، وهي متجهة إلى ذلك المكان، الذي أصبح حيزا يضمها كما تضم الأم رضيعها إلى حضنها، لم يتطلب منها الكثير من الوقت لكي توسع من شبكات معارفها، وسهلت لها ابتسامتها وروحها الخفيفة والدعابة الاندماج، خاصة وأن الكثير ممن عرفتهم لا ينظرون إلى الجزء السفلي منها الذي يحمل عرجا بينا، بقي كوشم عار على شخصها، لكنهم يخاطبون محياها الطفولي، الذي أصبح يشع من يوم لآخر، وبدأت بعض من لمسات الخشونة التي عاشتها منذ زمن تزول و سقط، ويظهر وجهها الحقيقي، الذي تزين ببعض من ألوان الماكياج، الذي لا تزال خجلة في وضعه، بالرغم من أنه خفيف لا يظهر للعيان، فالأهم هو قوة الحضور وليس مختلف الألوان التي تزين محيا المرأة، كما كانت تردد عليها حدة كل يوم... رغم هذا ظهرت بعض المواجع في صور جديدة، ليس من جنس الرجال، لكن من جنسها، فبعض من النسوة يتجنبن الحديث إليها، وحين يبتعدن عنها، يحرجنها بالنظرات الحادة، التي تذكرها بنظرات الرجال إليها، وهم يداعبون خصرها الذي لم ينضج في ذلك الوقت، كما كانت تتذكر تحرش

الرعاة الدائم بها، وهم يسيرون نحو الغابة، ويغوصون بين الأشجار... أدركت أن الصراعات في هذا العالم لا ولن تنتهي، مهما كانت شخصية الواحد منا، وسوف تهديك الطبيعة أعداء جدد في كل حيز تعيش فيه، تختلف أشكالهم، لكنهم يحملون نفس النظرة والاحتقار وفي بعض الأحيان أكثر من هذا، وهو التعدي حين تكون الفرصة مواتية...حين كانت تقص على حدة هذا الكلام، كانت تبتسم ضاحكة من قولها، وتشدها إليها من كتفيها وتطلب منها عدم الاكتراث، الأعداء موجودون في كل مكان، ولن ترضي كل من حولها مهما حاولت، فإرضاء الناس غاية لا تدرك، وسواء كنت ناجحة أو فاشلة، سوف يتتبعون هذا، سوف يقولون لك أن نجاحك مغشوش مهما كان، وان فشلك هو ما سوف ترثينه من هذا العالم لذا ابتعدي عن الطريق... هم يعرفون أنك لو انحنيت أمامهم سوف يشهرون لفشلك ، وسوف تجدين فشلك معلقا في كل الواجهات حينها يصبح هذا الفشل كابوسا يطاردك حتى في نوم القيلولة، أما في الليل فيتحول إلى وحش يطاردك، لذا سوف تضطرين إلى الاختفاء وراء الأنوار... كان حديث حدة إلى ربيعة في كل مرة، كمن أصابه ظمأ في عرض الصحراء، وحين فتح عينيه وجد نفسه ملقى إلى جنب الماء فيشرب منه حتى يرتوي.. كان جلوسها إليها، بمثابة تزويدها بالطاقة الإيجابية التي تذكرها أنها تستطيع أن تكون قائدة رغم كل شيء... تصف لها الدواء كطبيب يعرف مريضه منذ زمان لذا فهو ليس مجبرا على فحصه في كل مرة، بل يقدم له الدواء

فينصرف وقد شفي من علته... كانت تنصرف من عندها في كل مرة وهي تضرب قدميها بكل قوة على الأرض، لكي تصل قدماها إلى الأرض وتلامسانها، كأنها تتحدى بضربها هذا، صاحب النظارة الذي أكد لها أن قدمها لن تمس الأرض كاملة يوما، فلا تتعب نفسها بالمحاولة...

مرت الأيام والشهور، وتقدمت ربيعة في الحياة، تفتحت مثل وردة،كانت تنتظر الربيع لكي تغازل الشمس وتتباهى بجمالها، أو كعصفور صغير ينتظر اكتمال جناحيه لكي يحلق عاليا، نفضت عنها غبار الماضي الذي أرقها، ومسحت ملامح صاحب النظارة الغريب عن مخيلتها، الذي أصبح بالنسبة لها، مجرد حلقة حديدية في شريط حياتها، صدأت فكان واجبا عليها تغييرها، حتى لو كان الأمر مؤلما، لكنها اعتادت على هذا الفراغ، الذي بدأ يضيق مع الأيام حتى أصبح لا يرى بالعين وزال الإحساس به. وهذا بمساعدة حدة التي كانت تشير عليها، في كل مرة وهي شاردة الذهن، أن تضع نقطة وتواصل السير في حياتها، يجب أن نرسم أهدافا جديدة بدل الوقوف على الأطلال، التي تذكرنا بماضينا الحزين، صحيح الماضي جزء من حياتنا سواء رضينا أم أبينا، لكننا حين نراه يمتد إلى حاضرنا يجب أن نصده، يجب أن نذكره بتاريخ صلاحيته في حياتنا وحين يحاول في كل مرة ويجد الأبواب موصدة، سوف ينسحب مع مرور الأيام، الماضي لا يكسر الباب علينا عنوة من أجل الدخول بل نحن من يساعده على العودة لحياتنا، وهذا بالنبش فيه كل مرة

ومسح الغبار على أحداثه حتى ولو كانت مؤلمة، كأننا نعيد فيه الحياة، هذا لكي نبرهن لأنفسنا أننا أوفياء له، رغم كل الألم الذي تركه في حياتنا السابقة...

تجاوزت الشعور بالخجل عند الكلام، وأصبحت تقف أمام الحضور باتزان، وتفيد برأيها حين تختلف الآراء، أحبها الجميع لقوة حجتها، كأنها درست علم النساء والرجال على حد سواء، طرحت في بعض الأحيان، قضايا لم تكن مطروحة من قبل، رحبت بها الكثير من النساء، تجاوزت في حضورها الوقت المخصص لها دون أن يذكرها أحد، لأنها كانت مقنعة تشد كل من يجلس إليها، حتى حدة انبهرت بسهولة ولوجها إلى هذا المجتمع النسوي، أصبحت واحدة من النساء المؤثرات برأيها وقوة نظرها للأشياء، رغم سنها إلا أنها اخترقت المكان وحجزت لنفسها مكانا قريبا من النساء التي تجاوزناها بعد سنوات في هذا الميدان...

حين ترجع إلى البيت، تأخذها وردية بالأحضان، وتطلب منها أن تحكي لها كل التفاصيل حتى التافهة منها، تريد أن تعرف كل شيء عن هذا المجتمع الذي تذهب إليه ربيعة صباحا وهي تتمتع بالنشاط والحيوية وحين تعود بالمساء تحمل الكثير من الأوراق وهي منهكة يظهر هذا على شفتيها الجميلتين، اللتين جفتا من كثرة الكلام وألوان زينتها، تمزقت فوق محياها وأصبحت مثل خدوش تفسد ملامحها...أما حدة فقد كانت تراقبها من قريب وهي تبتسم، بعد يوم شاق، كانت ربيعة واحدة منه، وقد كانت بالأمس لوحدها، ترجع

مساء ولا تجد مع من تكمل الحديث، لكن ربيعة اليوم بجانبها تذكرها بالكثير من التفاصيل التي لا تنتبه لها، أصبحت مثل أجندا، تحملها معها، لتترجم كل ما يدور، وما قيل وما أريد أن يقال أحبت فيه سرعة البديهة، تواصلها دون كلل، حبها للجميع، وأكثر من هذا البحث عن الجديد وتقديم البديل في كل ما يطرح من الأخريات... كانت تراقبها وتتذكر حياتها في الغابة وتتبع الأبقار والأغنام، فتاة تحمل بداخلها طاقة رهيبة تستطيع تحريك الأفراد من حولها كما تحرك أحجار الشطرنج، لكنها كانت مدفونة وهي حية في زوايا مظلمة في هذا العالم... تحمل عقلا راجحا يزن مساحة دشرتها، لكنها كانت تعاني في صمت فرض عليها واقعا لم تكن مسؤولة عليه، قيدوها بسلاسل التقاليد والعرف حتى أدموا معصميها، وأكثر من هذا لا يسمح لها بالبكاء...كم هي قاسية الحياة، حين تجبرنا على السير في ظل من يسير أمامنا حتى ولو كان أعوج، لأن أصله كذلك..

قبل الوصول إلى ما هي عليه اليوم، ورغم تأقلمها السريع في مجموعة النساء، إلا أن الكثيرات ضايقناها في أول أيامها، ربما لأنهن لاحظن قوة حضورها وهي تتجول بين الجموع، وهذا ما خلق في نفوسهن الغيرة، خاصة وأنها غريبة الديار، فالغريب يبقى غريبا بين أهل المكان حتى يفرض نفسه، لذا يصبح غير مرحب به رغم أنفهم، وإن لم يستطع، فسوف يبقى كذلك حتى يمل ويرحل... كانت كلما تصادفت معهن، ذكرناها بعرجها بالنظر إليه وهن يتبادلن

الابتسامة الماكرة، لكنها بقيت محبة للجميع، ولم تعلن العداوة معهن، بل أكثر من هذا،كانت توزع ابتسامتها عليهن مثل عطر صباحي يزكم الأنوف، فيزيد غيظهن، فأكثر ما يتعب عدوك هو ابتسامتك له حين يريد طعنك... وكأن الأمر أصبح لا يعنيها، مادامت تخطو خطوات ثابتة نحو ترسيم اسمها بينهن، كما كانت بعض منهن، يتداولن الغمزات، في أول أيام حديثها أمام الجميع، لكنها كانت تشيح بصرها عنهن، لكي لا يشوشن عليها الحديث، رغم تلعثمها في البداية، إلا أنها سرعان ما وجدت سر لسانها، فأصبحت تخاطبهن بسلاسة دون ملل ولا توقف... ومع مرور الوقت أخذت الوقت الكافي لكي تثبت نفسها بينهن دون خجل ولا وجل، وكأنها أعلنت أنها تقاسمهن الدار، مادامت الدار خدمة للأنثى، فلا يحق لأي كان، رسم حدودها ولا علو سقفها، الكل متساو، إلى أن يقدمن الجديد أو البديل، فلا فرق بين هذه وتلك إلا بالاجتهاد...

...تحول حالها من حال إلى آخر، في الحياة حتى في اللباس وطريقة الكلام، تسير بين جموع أهل القرية مرفوعة الرأس، تبادل كل يلقي عليها السلام، السلام وهي تنتظر في ملامحه، ليس كما كانت في الماضي يحرجها الغريب، وتتلعثم أمام الرجال، وتهاب بنت جنسها فقط لأن كعبهن عال وتظهر عليهن زينة أهل الحضر، لأنها اليوم أصبحت واحدة منهن، تلبس ما يلبسن وتأكل ما يأكلن، وتتسوق وحدها، وتعود مساء وهي تحمل الكثير من الصحف والكتب ومحفظتها الصغيرة...

زارها يوما الرجل الغريب، وهو يحمل بعضا من طيور السمان والحجل، كانت خارج البيت وحين رجعت، اعتدل أمامها كما يعتدل الرجل في حضرة امرأة غريبة لا يعرفها، بقي ينظر كأنه عرف النصف الأسفل من جسدها أما الأعلى فلم يعرفه، مناسبة كانت صادمة لها وهي تقف أمام من غيرها حياتها إلى الأبد، إلى درجة إجهاشها بالبكاء قبل الحديث، سقطت الكثير من الأوراق التي كانت تحملها، وانحنت أمامه تشكره وتقبل يديه قبل الكلام، أما هو فبقي يداعب هذه التغيرات التي حصلت معها بعينين شاخصتين... ربيعة تلك التي تلقفها في الغابة وهي نائمة وكان يمكن أن تسبقه إليها الذئاب، متسخة الثياب، وشعر أجعد أكله التراب وأوراق الأشجار ورجلين صغيرتين يحملهما حذاء بلاستيكي قديم، وملامح أنوثتها تختفي وراء لباس رث قديم...أصبحت اليوم تدوس على الأرض بكعب عال أخفى عرجها، وعطرها الذي يسبقها في المسير، بلباس عصري يليق بها، وهو ينظر إلى الأوراق الكثيرة التي تبعثرت أمامها حتى غطت نصف مساحة أرضية الغرفة، وقد أهداها فيما سبق مصحفا صغيرا كان كل ما لديها لتقرأه... لم يستطيعا تجاوز هذا الشعور، وهما يتحدثان وهي تداعب لحيته التي ابيضت عن آخرها وأعلنت دخوله إلى مصاف المسنين، ولم يتبق من أسنانه إلا القليل بعدما عانت من الاصفرار لما كانت تعرف من قبل، حتى سقطت مع مر الزمان..

ليلة ليست كغيرها من الليالي الأخرى، حين جلست إلى هذا الذي أصبح كل أهلها، فلا أخويها سألا عنها فقد تركتهما يعبثان مع أبناء خالهما دون ملل، ولا أعمامها أهمهم أمرها، فأكيد نقل إليهم أبناؤهم الرعاة خبرها حينما باغتتهم في الوادي وهي تسير نحو المجهول، لكنهم لم يبحثوا عنها ولو كذبا من أجل معرفة حالها، ولا أخوالها الذين خرجت من عندهم وهي مهزومة تجر خيبتها منهم ورحلت ولم يتبعها خالها الذي سكنت عنده منذ ذلك اليوم، ولم يرد معرفة أخبارها، بالرغم من أنها ابنة أخته الوحيدة التي تنام اليوم في قبرها منذ سنوات...

أرجعها عبر حديثه على الدشرة وما يحيط بها، إلى الغابة والأبقار والأغنام التي كانت تجر رجلها العرجاء وراءهم في كل مكان، كان كلما ذكّرها بهذا تبتسم من حالها، فقد مرت من هناك، وكل ما يقوله يرتسم في مذكرتها، كأنها تعيد إليه الحياة، أفجعها بخبر زوجته التي سقطت في الوادي مرة، وانكسرت رجلها وقد خدمها بعد ذلك عدة شهور، ففزعت إليه تترجاه أن يحملها إليهم من أجل العلاج، لكنه أصر على أنها شفيت من جرحها وهي اليوم تقفز مثل فتاة في العشرين، فترد عليه ووووووه... قص عليها الكثير من خفايا الحياة في الدشرة، لكنها تعرفها وتحفظها عن ظهر قلب، فقط تريد معرفة الجديد بعد ما هجرت ذلك المكان منذ زمان... عاتبته كثيرا على عدم زيارتها منذ أن وضعها هنا رفقة حدة، فرد عليها أنه يعرف أنها لن تحتاج إليه ما دامت برفقتها... لم تنكر هذا بالرغم من أنهما لم

يتواصلا في الأيام الأولى، كأنهما ترك المجال بينهما كغريبين يعيشان تحت سقف واحد، لكنهما اليوم أصبحتا في مقام أختين في الشغل وفي البيت... أما في مقر اجتماع النساء، فهما عضوان نشيطان للدفاع عن كل ما يحلم بها جنسهما اللطيف، كما أنها عرضت عليها مؤخرا، أن تأخذها معها إلى محل صغير للخياطة من أجل تعلم الخياطة وكسب بعض المال، وهو ما أبهجها وزاد قربها منها..

جلست إليهما حدة ووردية، وتحولت السهرة إلى أمسية للضحك والمزاح، مع هذا الشيخ الذي بان هرمه مقارنة بالمرة الأخيرة التي حمل فيها ربيعة إلى هذا المكان، قص عليهن الكثير من القصص الطريفة التي لا يزال يحملها في صدره، تجاوبن معه بالضحك المسموع... حتى بان ضوء الصباح، ولم يبق الوقت للنوم... حملت ربيعة نفسها على المطبخ وأتتهم بعد قليل من الوقت بفطور الصباح، من حليب البقر و كسرة الشعير، التي حملها معه الشيخ إليهن، من الدشرة... وحين انكشف النهار وبانت الطريق، رحل الشيخ بعدما اختلى بكل واحدة منهما على حدة، وقدم إليهن بعض المال، ولم يكتشفن هذا حتى رحل...

هزمتها الدموع وهو يودعهما على عجل، كان أحد أقاربها يريد الرحيل، أبكته حينما جاء وحينما رحل، تبعتها حدة، وهي تردد معروفه عليها منذ زمن بعيد، دون مقابل فقط، لأنها من دمه كما كان يقول... لقد اختارهما ابنتيه اللتين لم يلدهما وكأنه يعوض واجب الأبوة معهما، بالرغم من أنه ليس مجبرا على ذلك، لكنه ما

يزال يمدهما بالعطاء... اكتشفت خلالها ربيعة أنه كان يرسل إلى حدة المال، في كل مرة، وحتى لو لم يزرها، إلا أنه لم يتردد يوما في إرسال لها هذا المال لتسد حاجتها، بالرغم من أنه يعرف أنها تدير محلا صغيرا للخياطة، وهو يكفي لسداد مصاريف حاجياتها..

***

كانت تجمع بعض الأوراق من فوق الطاولة، بعد اجتماع صباحي انتهى بضرورة التوقيع على قائمة من مجموعة نساء لكي يكن الممثلات لهذه الجمعية.. فلاحظت حدة تقف إلى رجل، وكان يظهر أن الحوار بينهما حاد، وهذا من خلال حركات يديها، وهو يقف دون حديث، كمجرم يقر بجرمه بعد جمع كل الأدلة التي تثبت إدانته سارعت إليها من أجل معرفة ما يدور بينها وبين هذا الغريب الذي لم تره من قبل، وقبل أن تصل إليها سقطت وطارت كل الأوراق التي كانت تحملها بين يديها، فالتفت كل من كان في القاعة إليها... خانها عرجها في هذا اليوم ولم تنتبه وعيناها معلقتان بحدة مع ذلك الغريب، ربما خوفا عليها أو دفعتها عقدتها من الرجال أنستها خطواتها، لأنه يقف على مسافة قريبة من حدة، حتى كادت أنفه تلامس أنفها، ولم تعهد أن ترى أحدا يقترب منها إلى هذا الحد سارعت إليها حدة ورفعتها من على الأرض، كما خطا إليهما ذلك الشخص الغريب بخطوات سريعة وحاول مساعدتها في رفع ربيعة لكنها نهرته بصوت مسموع، فانسحب دون كلام... رحلتا وبقيت

ربيعة معلقة بذلك الشخص الذي بقي يراقبهما وهما ينسحبان على عجل...

***

سارتا في الطريق العام دون حديث، فلا حدة أرادت أن تخبرها عن ذلك الغريب، ولا ربيعة أرادت معرفة من هذا الذي عكر مزاجها، وقد كانت قبل قليل سعيدة بعد ترسيم قائمة من أسماء النساء كانت هي على رأس القائمة، وهي أول خطوة نحو بناء مشروع يهتم بالمرأة في هذه القرية وهو المشروع الذي تعطل منذ زمان... تجنبت السؤال لكي لا تحرجها أو تتدخل فيما لا يعنيها، فلقد حفظت عنها ضرورة المحافظة على مسافتها مع الأشخاص حين تراهم منغمسين في أحزانهم أو في شيء يشغلهم، لكي لا تشوش عليهم ما هم مهتمون به... وتتركهم يلملمون أشلاءهم وعدم إزعاجهم...

لاحظت وردية ذلك الصمت الذي حملته كل منهما من خارج البيت، وهو أمر غير معهود منهما، ففي الغالب، الحديث لا ينقطع بينهما وكلامهما يدوي بين السلالم، لذا يسبقهما إليها، فتخرج لاستقبالهما وهما عائدتان من شغلهما.. لم تعهد هذا من قبل وبقي الفضول يدغدغها، فاختلت بربيعة في غرفتها، من أجل معرفة السبب، فعرفت أنها التقت بشخص يظهر أنها تعرفه من قبل، ودار بينهما حديث حاد، وانصرفت دون أن تودعه أو تلقي عليه التحية ومن تلك اللحظة وهي صامتة لم تكلم أحدا... وبينما هما كذلك

تتناقشان موضوع هذا الصمت... حتى دخلت عليهما وهي تبتسم فاختارت المكان القريب إليهما وجلست، وهما يحملقان إليها في انتظار ما قد تقوله عن حالها، بقيت تداعب شعرها وهي شاردة الذهن تراقب الشمس من النافذة، وتتأمل كأنها تريد رسم ملامح شيء غير موجود، أو تعيد تركيب أجزاء في الهواء...

....بعد هذه اللحظات من التأمل لوحدها، التفتت إلى ربيعة... أتدري من يكون ذلك الذي كان يضايقني في القاعة، إنه سعيد الذي حدثتكما عنه، يريدني للزواج هذه المرة، بعد ما طلق زوجته، بعد إهانتي وخداعي، لا يزال يطاردني، كان يعتقد أنني لازلت واقعة فيه مثل مراهقة في سن العشرين... يعتقد أنه حينما يظهر أمامي مرة ثانية، اقفز عند رجليه أقبلهما وأحمد الله على عودته، واطلب منه الرجوع، والغريب أنا من هجرته حين طعنني في كبريائي، لو أرادني زوجة ثانية فيما مضى، وهو متزوج، لانسحبت دون أن احمل له غيظا، مادام الرجال يعتقدون أن من حقهم الزواج بالثانية والثالثة والرابعة، فأرفض دون أن أجادله، لكنه حينما اتخذني خليلته في خلوته، ولما كان يغيب عني، كنت أعتقد أنه في رحلة سفر كما كان يوهمني، لكن السفيه كان في حضن زوجته غير مبال بحالي، وقد تعلقت به إلى أبعد الحدود، وحين يأتيني مرة ثانية يمثل دور العشيق الولهان الذي حمل نفسه مسرعا من أجل العودة لي وهو يحمل هدية تنسيني غيابه... أترى، متى يتوقف الرجال عن تمثيل هذا الدور كلما تصادفوا مع امرأة ثانية... بعض الرجال أصبحوا

اليوم لا يفرقون بين الجرأة والوقاحة، أم أنهم يعتقدون أن النساء جواري عندهم، بإشارة بأصبعهم يأتين عند أرجلهم، يعزفن لهم الموسيقى وهم يتداولون على أكل الفواكه، ويتبادلون النكت التافهة ولا ينتبهون للجواري وقد غلبهن التعب من طول السهر، ثم يأمرهن بالانصراف حين تمتلئ بطونهم، ذلك الزمان ولّى على الأقل عندي، ومن طعنني في كبريائي سوف أطعنه في رجولته...

...كلام ظهر فيه نوع من الشدة وعنف الكلمات، في الغالب لما كانت تلقي مثل هذه المحاضرات أمام ربيعة ووردية تنصرف في هدوء، لكنها هذه المرة، اتخذت من الأريكة سريرا لها، ثم حملت رأسها بذراعيها وغاصت في مراقبة السقف حتى غرقت في النوم وسمع بعد ذلك شخيرها...

...هل أسقطت ما كان ينغص عليها حياتها للمرة الثانية بعد هذا الكلام؟ هل تختبئ وراء هذه الكلمات؟ لأن سعيدا أعادها إلى شم عطره، فخافت أن يستدرجها بمذاقه، فتتبعه مرة ثانية إلى جحره لكي يلدغها مرة ثانية... هل هي في صراع بين عقلها وقلبها كل منهما يشدها إليه، وهي تقف في الوسط لا تدري أين تتجه، فقلبها قد يرميها مرة ثانية، في حضن مخادع خدعها من قبل وكيف ترضى بأن يمرغ أنفها بعد هذا، أم أنها سوف تتجاوزه بعقلها، وقد تجاوزت كل مراحل العشق والهيام، وقد لامست الكثير من الأشياء في مسيرتها فلا يمكن لها أن تنخدع مرة أخرى بالمظاهر الجوفاء والكلام

المعسول، الذي حملها يوما ما، إلى مكان غير مكانها... أم أن الحب والعشق جلدان وقع جلدها لا يشفى حتى الممات، وكلما وقف عند رأس العاشق أعاداه إلى حضن ذلك المعشوق حتى ولو كان خائنا أو مخادعا...وهما بذلك يدوسان على قوانين الكبرياء والكرامة...

كل هذه الأسئلة كانت تدور في مخيلة ربيعة وهي تراقب حدة عن قرب، أعادت إلى ذهنها شكل ذلك الشخص الغريب بعد ما حفظت ملامحه، رجل قوي البنية، نظراته حادة، يمكن أن يأسر كل من تقف أمامه بكل سهولة، فالنساء في الغالب يملن إلى الجسد المفتول والعضلات القوية، والنظرة التي تترجم الحب من أول نظرة في اعتقاد الكثير منهن، وبشارب ضخم قد تغرق العاشقة فيه من أجل مداعبته في ليالي السمر الطويلة... لكنه إذا كان كما أعتقد لماذا لا يزال يطارد حدة بعد الجرح العميق الذي تسبب لها فيه تظهر آثاره في كلامها... سألت نفسها، ثم أغلقت الباب على حدة وذهب إلى المطبخ رفقة وردية....

يوم آخر كان من الممكن أن تحتفل به حدة وربيعة ووردية كحفلة عيد الميلاد، بعد ترسيم قائمة تجمع بعض أسماء النساء، من أجل خوض معركة البحث عن حقوق المرأة الضائعة، كما كن يرددن في كل وقت... هي مناسبة للتأسيس لأول جمعية تكون الراعي الرسمي لأحلام المرأة التي ضاعت بين دعاة الذكورة والقوامة في كل شيء، حتى أصبحوا يعتقدون أن المرأة إنسان من الدرجة الثانية...

لكن عودة سعيد إلى الواجهة، وإلى البحث عن حدة مرة ثانية خيم على سهرة انتهت صامتة، كأنها في بيت عزاء....

رغم مرور أشهر، على تلك الرسالة المشؤومة، التي وصلتها من صاحب النظارة، والتي قتل فيها الجزء الباقي الذي تحمله في صدرها وعقلها عن الرجل، لا يزال ذلك الماكر يقف في الجهة الأخرى من الشارع يراقبها دون توقف، بالرغم من كونها أغلقت باب تلك الغرفة المطل على الشرفة، بل وأغلقت باب قلبها وغيرت مكان عصفورها لكن وردية تأتيها وتخبرها بأن ذلك المعتوه الأبله، لا يزال هناك منذ الصبيحة دون ملل، وكأنه يتعمد المجيء لكي لا تستطيع تجاوز تلك الإهانة ويذكرها بها، وهو يعرف أنه أصابها بطلقة جارحة ودامية سوف تبقى غائرة إلى الأبد، وفوق هذا، يعرف أنها تعلقت به، ولا يمكن لها أن تتنكر لهذا حتى ولو أظهرت العكس... تتذكر عودة سعيد إلى حياة حدة، يحمل في صدره شيئا من الخبث والخداع لكي يوهمها مرة ثانية أنه لا يستطيع العيش من دونها، وهو ما يقوله أغلب الرجال، للنيل من المرأة، وفي الأخير تظهر أنها مجرد كلمات من سيناريو فيلم أو مسرحية يتقنها أغلبهم... تتساءل في الكثير من المرات، لماذا عندما يسبب الرجل الأذى للمرأة لا يتركها وشأنها من أجل أن تعيد ترتيب حياتها والسير نحو الحياة؟ رغم الخطوات الثقيلة والمؤلمة حتى يشفى جرحها مع مرور الوقت.. لكنه يبقى دائما يقف عند جرحها لكي يذكرها به، بل وفي بعض الأحيان ينبش فيه لكي يسمع أنينها وهي تصرخ من شدة الألم... لو أحبها حقا ما فعل

بها هذا، بل يساعدها على تجاوز هذا الشعور ولو كذبا، كقوله لها بأنه لا يستحقها وتستحق شخصا آخر أفضل منه، وهي الطريقة التي يستعملها الكثير من الرجال حينما يقررون الرحيل فجأة... كانت ترى أن هذا الغريب لم يشبع من أذيتها، ويريد أن يؤذيها مرة ثانية ومرات أخرى، يريد أن يجرحها حتى يتأكد من أن جرحها لن يبرأ أبدا، ومع مرور الوقت سوف تكون مجبرة على استئصال ذلك الجزء، لأنه سوف يصبح نتنا كحال الجرح الذي يتعفن، لذا يجب عليها أن تتخلى عنه، وحين يتأكد من هذا، يقرر الرحيل وهو يبتسم...

كانت تريد أن تعالج هذا الرجوع مع حدة، لكنها خشيت أن تجرحها وهي لا تدري، خاصة وأنها عادت إلى نشاطها، كأنها تجاوزت كل ذلك الألم، كانت تراقبها وهي تتجول بين النساء وتوزع الابتسامات دون ملل، لا تستريح من الكلام والحديث إليهم فرادى وجماعات، كأنها تريد أن تنسى ماضيها بالدوس عليه باللامبالاة، وعدم الاكتراث له، حتى يرحل وحده من فكرها... الشعور بالخيانة شعور قاس، لكن لا يمكن للفرد أن يقف عنده يبكي أمامه بكاء ثكلى تريد أن تدفن بجنب ولدها... النجاة منه والخلاص، يجب أن يكون بالقفز عليه وفقط...

...اتفقت النساء على القائمة النهائية، لذا كان واجبا الانتقال إلى الخطوة الموالية، وهي ضرورة الحصول على الموافقة عليها، وهي الخطوة الصعبة والعقبة التي كانت حدة ترددها على ربيعة،

فحينما يصبح الحكم بيد الرجل من أجل التوقيع لأمر يخص المرأة، هنا يبدأ الصراع الأبدي الذي لا ينتهي، وهو صراع الجنسين الذكر والأنثى، كل يدافع على جنسه، وكان من الممكن أن يكون هناك اتفاق، لو أن الرجل نظر إلى المرأة على أنها شريكته في الحياة وليست خصمه...

الاعتراف بالمرأة كشخص مفيد وفعال عند بعض الرجال، هو بمثابة السقوط من فوق صهوة الحصان، أو طعن في رجولته فكيف تقارن ذكورته التي يتباهى بها في كل مكان، بكائن خلق من ضلع أعوج، لذا بقي هذا الصراع منذ القدم، ويزيد مع مرور الزمن لكن سوف يتوقف حين تلامس هذه الأنثى ولو بيدين ناعمتين المهن الخشنة التي كانت حكرا على الرجال... للأسف، المرأة عند الكثير من الرجال شريكة له في الفراش فقط، أما في شؤون الحياة الأخرى فهي خصمه، ويبقى يخاف من حضورها في أي مكان، من أجل طلب مشاركتها له في هذه الحياة... مرافعة سمعتها ربيعة من حدة مرات ومرات، آمنت بها وصدقتها، لأنها جالست الرجل في كل مكان...

طلبت منها حدة الاستعداد من أجل السفر إلى المدينة، وهي مناسبة أخرى، مرت عليها مثل حلم يداعبها وهي نائمة تلامس نسيم الصباح، لا تريد أن تستيقظ لكي يبقى يحتضنها ولا يرحل... حينما جلست إلى جانبها في سيارة أجرة، ألقت إليها الملف وطلبت منها فتحه، وإعطاء رأيها في الأسماء التي اختارتها رفقة بعض من النساء

فقد أصبحت تستشيرها و تأخذ برأيها في الكثير من الأمور، بدأت تغازل هذه الورقة بعينين شاخصتين، كما تفعل مع كل الأوراق، لا تريد أن تضيع أي شيء حين القراءة، حتى موضع الفواصل والنقاط، وبعد لحظة التفتت إلى حدة، وقد غمرت محياها الدموع، لم تصدق أنها أصبحت ضمن شلة من النساء، يدافعن عن حقوق المرأة وحلمها في هذا المجتمع، التفتت في لحظة ما إلى ماضيها، ورأت نفسها بين الشعاب والوديان في الدشرة، تساعد الجديان لتجاوزها، وحراستها من الذئاب والعودة بها عشيا سالمة... حلمنا يمكن أن يكون على مرمى حجر منا، وقد يكون في مكان آخر ينتظرنا، لذا يجب البحث والتنقيب عنه، كما ينقب عن الذهب...

وبينما هي ضائعة، وشاردة في تفكيرها لا تكاد تصدق، حتى خطفت حدة الملف من يديها، فاستفاقت في هذه اللحظة، وتوجهت إليها وارتمت في حضنها...

عم الهدوء بينهما، كانت حدة، تلتفت إليها في بعض المرات وهي تبتسم، تعرف هذا الإحساس الأول الذي يحسه كل واحد منا، حين يلامس حلمه، يبقى شارد الذهن هنا وهناك، لا يجد ما يقول تذهب الكلمات، ويتقطع الصوت، ويرتمي في بحر لا شاطئ له يفكر في كل شيء في نفس اللحظة، يجتمع عليه الماضي والحاضر و المستقبل في آن واحد فلا يجد ما يقول... ولا يجد ما يعبر عنه حينما تخونه الكلمات، وتعتصر بداخلنا، لأن هذا الشعور الساخن

الذي نحمله بداخلنا في هذه اللحظة، يصهر العبارات والجمل، كما تصهر النار الحديد وكل المعادن... لذا نبتلع كل أحرفها...

سارت السيارة، وربيعة لازالت غارقة في التفكير، كأنها في حلم تنتظر من يوقظها منه، فقط تريد بعضا من الوقت لكي تستمتع أكثر... وبينما هي كذلك حتى ربتت حدة على كتفها، وأخبرتها أنهما وصلتا إلى وجهتهما... نزلت ربيعة وهي تراقب هذا العالم الجديد من حولها، وما تحت قدميها، فهي المرة الأولى التي تطأ فيها قدماها شوارع المدينة الواسعة، التي تعج بالحركة والصياح، وأحست في هذا اليوم بأصوات جديدة لم تألفها في حياتها، فقد ألفت أصوات الحيوانات والأمطار والرياح تقتلع القرميد في الدشرة، وفي القرية ضوضاء لكنها متقطعة.. فاجأتها أبواق السيارات من كل مكان والنساء يتجولن في كل الاتجاهات، لا أحد ينتبه للآخر ولا يتتبع خطواته فالكل منشغل بمهمته...كثرة المحلات والحدائق وكذا المطاعم... وبينما هي شاردة في هذا كله، حتى طلبت منها حدة التوقف أمام عمارة شاهقة و أمرتها بالدخول... لأول مرة أحست بأن رجلها العرجاء محظوظة، فقد لامست أماكن راقية لم تلامسها أقدام الكثير ممن يتنمرن عليها، كما تذكرت قسم صاحب النظارة حين أقسم لها أنها لن تلامس رجليها الأرض مجتمعتين أبدا لتذكيرها بعرجها فقط...

***

عم الهدوء في اجتماع صباحي، حضرته غالبية النساء، لكن الحزن يظهر على الملامح، وغياب الابتسامات المعهودة والضحكات المسموعة التي كانت تدوي في المكان. الأمر ليس نهاية العالم، لكن التوقيع والموافقة لا يتطلب التأجيل والمماطلة، وهو ما كان يقف حاجزا أمام النساء منذ البداية، فكلما طرقن باب الحقوق وتأسيس مثل هذه الجمعيات وجدناه موصدا مغلقا، من غير تبرير ولا حجة مقنعة، فقط طلب الانتظار من أجل دراسة الموضوع هذه الدراسة التي ماتت الكثير من النساء اللواتي طالبن بها ولم تر النور... اتضحت مع مرور الوقت أنها مقننة فقط، من أجل الهروب إلى الأمام حتى يدب الملل والكلل في نفوسهن وينصرفن في هدوء...

"لن نستسلم هذه المرة، ولن نتوقف عن المطالبة بهذا التوقيع والمصادقة مهما كلف الأمر"، جملة فتحت بها حدة جلستها مع النساء، كأنها تريد أن تبعث فيهن الأمل والحماس، مثل قائد يرى الهزيمة في عيون جنده، قبل المعركة، لذا يجب عليه أن يرفع من هممهم ولو بالكلام، ففي بعض الأحيان بعض الكلمات تقوي الروح والنفس، وتوقد علو الكبرياء، وتكون دافعا محفزا للفوز في مختلف ميادين الصراع... لذا يتطلب في الكثير من الأحيان، البحث عن ذلك القائد الذي يعرف مفاتيح النفوس ودوافع العزيمة، قبل أن يدب فيها العجز وينتشر بين أفرادها... فالقائد الفذ، هو ذلك من يقنع جنده أن المستحيل موجود فقط في الأذهان، ففي الواقع كل شيء قابل للتحقيق، فكما هناك المستحيل توجد هناك المعجزات...

هي نصف الحقيقة التي ذكرتها حدة أمام النساء، والوحيدة التي تعرف الحقيقة كاملة، هي ربيعة، التي شهدت ما حدث عن قرب وهي أن سعيد يكون ضالعا في هذا الموضوع، وكأنه اغتنم فرصة التوقيع أو المصادقة على هذه الورقة من اجل ابتزاز حدة، فالزواج أو لا...

لقد استفاق ماضي حدة أمامها، بشكل مفاجئ لم تحسب له حسابا، لم تكن تدري أن سعيدا تدرج في المناصب، في الوقت الذي كسر حظها في هذه الحياة، وبقيت تتأرجح كالمعلقة من عرقوبها وحين أرادت النهوض، صادفها مرة ثانية، بل وأصبح له سلطة القرار، كان يطرق الأبواب من أجل هذا التدرج، وهو يتأبطها عند أسياده، حملها صورة جميلة معه، كشيفرة لدخول كل الأماكن، لم تكن تدري أنه استعملها كدمية من أجل تحقيق مصالحه، وحين حققها رماها كما ترمى منشفة مسح الحذاء في أول قمامة تصادفنا في الطريق...

..أضاف لألمها الأول، وهو اللعب بمشاعرها، كما تلعب أنامل العازف على الأوتار، ألما آخر وهو استعمالها، لقد استغل طيبتها وشراستها في الميدان وعنادها مثل لبؤة، من أجل أن يصل إلى مصاف الكبار...كانت تتذكر بعض الجمل التي كانت تسمعها من أسياده، وهو واقف مثل جندي أمامهم، عرفتها جرمتها اليوم فقط منها، "أنت يا سعيد ماكر وخبيث لا تستحق، لكن من أجل هذا الوجه الحسن ما فيه مشكلة"، كان يبتسم من قولهم ويطأطئ رأسه

مثل الخدم...كان يعرف نقطة ضعف أسياده، حينما كانوا ينحنون أمام جمالها، بالرغم من أنها تتأبط يد رجل آخر، وهو لا يبالي، ففي الأخير لست زوجته ولا حبيبته، فهي مجرد درج في سلم حينما أراد الصعود لأحلامه، حين يجتازها يضع رجله على درج آخر، ولا حاجة له بها بعد ذلك...

لأول مرة ظهر عجزها وأصبح واضحا للعيان، ورغم كلمتها الحماسية التي ألقتها أمام النساء، بان العرج في كلامها وتوترها وشرود ذهنها، فالمصادقة والتوقيع متعلقين بزواجها من شخص استغلها وغدر بها... تبادر إلى ذهن ربيعة في لحظة ما، أنها سوف تتوقف هنا، بعد ما غابت لبعض الأيام عن المقر، أما في البيت فكانت منغلقة ورجعت إلى جحرها، كما عهدتها في الأيام الأولى حين أتى بها الغريب إلى هذا المكان....

حينما نقف في بعض الأحيان في مفترق الطرق، ونلاحظ كبرياءنا وكرامتنا في اتجاه، وفي الاتجاه الآخر، مصلحتنا ومصلحة من هم معنا، خاصة بعد تعب وشقاء سنوات، يكون هنا الاختيار صعبا... هو موقف وقفته حدة، ولم تكن تعتقد يوما أنها سوف تكون مخيرة بين هذا وذاك، كانت تنظر في ملامح النساء من حولها، وهن متشوقات لليوم الذي يصبح لهن فيه جمعية تهتم بشؤنهن، وبين خيال وابتسامة سعيد الماكرة، حين أمسكها من معصمها حتى آلمها واقترح عليها الاختيار، بين أن تكون له وبين المصادقة على

مشروعها... لحظة كلما تذكرتها صعقت كمن يصعق بالكهرباء ترتجف أطرافها وشفتاها من ألم الاختيار وتحمل نفسها وتخرج في اتجاه مجهول، تتبعها ربيعة في كل مرة تراها تخطو إلى الأمام بخطوات سريعة غير مبالية بموضع أقدامها... إن رفضت عرضه سوف تكون بذلك قد قتلت مشروعا في مهده بعد ما عانى في أشهر الحمل... لكنها تعرف أنه حان الوقت لكي تختار، بين التضحية بكبريائها وكرامتها، والعودة إلى حضن رجل خائن لعب بكرامتها ومرغ أنفها في التراب والبسها وحلا لن تتخلص منه حتى تحت المطر وحين عاد إليها لم يعد متوسلا وراكعا أمامها، بل يريدها عنوة ورغما عنها، فهو صاحب القرار في مشوار حلمها وحلم الكثير من النساء كما ردد عليها وهو يشد على يدها بالقوة ولم تستطع الإفلات، وبين مصلحة جمعية أصبح لا بد منها، في ظل الكثير من الظروف... الوحيدة التي كانت تعرف حالها وهي تتخبط في هذا الشراك، كما تتخبط الحشرات في بيت العنكبوت هي ربيعة، لكنها لا يمكن لها أن تقدم لها النصيحة ولا تعتقد أنها مستعدة حتى للسماع لها، لن تقاسمها هذا الإحساس، مهما كانت قرابتها وحبهما لبعضهما فحينما يتعلق الأمر بالشرف والكرامة، يكون المعني هو صاحب القرار، فلا الصديق ولا القريب، وحتى الأخ ولا الأخت، لهم الحق في لعب دور المنقذ لنا...

...بقيت حدة تحتضر في صمت، ولاحظ عليها أغلب النساء الحالة التي تمر بها، لكنها احتفظت بهذا السر لنفسها، كانت تود أن

تجد حلا منصفا لها، تحافظ على كبريائها وفي نفس الوقت تضع هذا المشروع، على السكة الصحيحة من أجل تحقيقه بعد طول انتظار، بعيدا عن سعيد، الذي أصبح الشغل الشاغل لها، منذ ذلك اليوم الذي عرض عليها الاختيار بينه وبين حلمها...

أحست ربيعة بعد ذلك اليوم، قسوة الماضي في بعض المرات حين يقف عند أبوابنا، ولا يطرق، بل يدخل عنوة، خاصة حينما يكون مؤلما، لكنه يختلف بيننا، فمن الماضي ما نبقى معلقين به رغما عنا وليس اختيارا، يجبرنا على العودة إلينا ونحن نبتسم مكرهين على التعايش معه مرة أخرى بما حمله إلينا من جديد حين يصبح صاحب القرار في حاضرنا، ومن الماضي ما يبقى مجرد ذكرى، سواء رجع إلينا أو بقي واقفا بعيدا عنا، ورغم ألمه الذي زرع فينا، إلا أننا حين نختار الرحيل، لن يربطنا ولا دين له عندنا، لكي يضغط به علينا، أو بشيء يبتزنا به، وهو حالها هي مع صاحب النظارة، فقد أصبحت لا تبالي به وهو يقف عند الشارع العام يراقبها مثل وقت مضى، اعتبرتها إهانة لها، فبعد ذلك الكلام الذي زرعه فيها كما يزرع الرصاص في حقل الرمي، لن تعود حتما إلى تلك الأيام الجميلة، التي لازالت تدغدغ مشاعرها، من حين لآخر مهما كلفها الثمن..

طال الانتظار، وبقيت حدة كالمعلق من عرقوبه يتدلى من أعلى شجرة، جفت منابع ملامحها فجأة، وانطفأت كما ينطفئ النور لاحظت ربيعة هذا التغير الذي حصل عليها منذ ذلك اليوم، وكان

واجبا عليها أن تحدثها مهما كلف الأمر، تعرفها عنيدة لا تسمع الكلام، كحال فتاة صغيرة، تغلق الأبواب على نفسها في غرفتها، ولا تريد الكلام مع أحد، من أجل الحصول على ما تريد. لكن يجب أن تجلس إليها، لكي تذيب هذا الغيظ الذي يكاد يقتلها، ويعصر جسدها الرشيق كما تعصر قطعة القماش من الماء، أكيد لن تطلب منها التضحية بكبريائها من أجل إتمام هذا المشروع وهو أمر لا يخصها، ولا يحق لها إبداء الرأي فيه، فقط إذا طلبت منها هي ذلك، وفي نفس الوقت، يجب العمل على حل جديد، ربما يأتي بعد المناقشة وتبادل الآراء، معها ومع بعض النساء...

فاجأتها في غرفتها وهي تقلب بعض الأوراق كأنها تبحث عن حل بينها، وحين داخت ربيعة، اتخذت أقرب مكان لها وجلست، رمت رأسها بين كفيها وشعرها يتدلي فوق ملامحها، وأصبحت تظهر كأنها ليست حدة التي تعرفها، بعد ما غرقت في هذه الفوضى، التي تظهر في غرفتها وعليها هي نفسها، في ثياب رثة قديمة تظهر بعضا من جسدها، وهي المرة الأولى التي تقع عينا ربيعة عليها في هذه الحالة...

- أعرف، أنك تريدين معرفة الخطوة التي أريد أن أقدم عليها مستقبلا، من أجل أنا ولمشروع هذه اللجنة، وأنت الوحيدة التي تعرف ما أنا واقعة فيه، بين الزواج من ذلك الأحمق المخادع، وبين المصادقة على قرار تأسيس هذا الحلم الذي تعبت من أجله منذ سنوات، ومن الصدف أن تحقيقه اليوم أصبح بيد ذلك الحقير...

- من كلامك أفهم أنه لا توجد طريقة، للحصول على هذا التوقيع إلا بالخضوع لهذا المخادع الخبيث..

- بالنظر إلى المعطيات الحالية، لا يمكن بحال من الأحوال أن نتحصل على هذه المصادقة في ظل سلطة القرار بيد سعيد، وحتى وإن لم يكن كذلك سوف يبقى يعرقل، هذا المشروع من بعيد، عن طريق معارفه الموجودين في كل المناصب...

- إلى متى تبقي هذا سرا، على النسوة والأعضاء اللواتي اخترن مثل هذه الجمعية، ففي كل الأحوال سوف يصلن إلى الحقيقة، ألا تعتقدين أنه لو حدث، سوف تهتز مكانتك بينهن؟

التفتت إليها حدة بنوع من الدهشة، كأنها تسمعها لأول مرة وقفت من مكانها، وأصبحت في ذهاب وإياب في الغرفة، وهي لا تزال تنظر إليها... اعتذرت ربيعة وأرادت الخروج، لكن حدة طلبت منها البقاء، عم الهدوء بينهما مرة أخرى، كأن كل واحدة أفرغت ما بجعبتها من كلام، غير أن حدة بقيت شاردة الذهن في آخر كلام لربيعة، لم تستطع الجواب عن هذا السؤال، وبقيت تنتظر كأنها تختار الإجابة المناسبة، أو لا تملك الإجابة أصلا، ربما لأول مرة تحس بتفوق ربيعة عليها في الحديث، كأنها حاصرتها في زاوية لا تستطيع الهروب...

قضت حدة الليلة معلقة العينين في سقف الغرفة، لم تستطع النوم، كأن ربيعة أيقظت فيها شيئا كان نائما بداخلها، هل كانت تحس بالخجل من سؤالها ولم تستطع الجواب؟ أو ربما أرشدتها إلى

شيء أخر، لم تنتبه إليه؟... بقيت على هذه الحال حتى صاح الديك لحضور يوم جديد... حملت نفسها إلى الحمام، وحضرت نفسها من أجل الخروج...

***

طرقت باب غرفة ربيعة، التي لا تزال تغط في نوم عميق أصبحت لا تود الخروج وتترك حدة وحدها في البيت، أسرعت إلى الباب، وحين فتحته، وجدت حدة أمامها بكامل أناقتها، وكأنها نزعت الأسى الذي كانت تلبسه بالأمس، ولبست ثوب السعادة في الصباح... طلبت من ربيعة الإسراع في اللباس، من أجل الخروج فهذا يوم آخر جديد، ابتسمت ربيعة حين رأتها قد شفيت من ذلك الوجع، الذي أمسكها في بيتها منذ أسابيع كثيرة، وهي اليوم نشيطة تحمل الكثير من الأوراق، وتعيد التدقيق فيها كعادتها، ومن حين لآخر، تعيد تعديل ألوان زينتها على المرآة كأنها ذاهبة إلى موعد غرامي، يجب أن تكون في أكمل زينة، وأجمل حليها... لحقت وردية بهما في المطبخ، وهما تتبادلان نكتا صباحية كعادتهما قبل الخروج اسوحشتها منذ زمان، رحبت وردية بها في المطبخ الذي اشتاق لها منذ زمان... فنظرت إليها حدة وهي تبتسم، ابتسامة أعادت الروح لمحياها الجميل... طلبت منها حدة، اختيار أجمل لباس عندها وتحضير نفسها من أجل الخروج معهما... فردت عليها وردية، بعدم اللعب على أوتار مشاعرها منذ الصباح...لكن حدة أكدت لها، أن هذا ما تريد، ولِمَ البقاء في البيت في هذا اليوم الجميل، فبعض

الأوقات لا يمكنها أن تعود، فيجب اغتنامها حين تحل قريبة من ديارنا... بقيت وردية متسمرة في مكانها لا تجد ما تقول، وهي تراقب ربيعة تداعب خصلات شعرها وتبتسم، ثم رفعت إليها عينها وطلبت منها تطبيق أوامر المسؤول، كنكتة هزت ضحكاتها المكان بعدها...

***

...هي المرة الأولى التي تطرق فيها وردية باب مقر النساء، ففي الغالب كانت تقضي أغلب وقتها قبل مجيء ربيعة، بين شغل البيت والحديث من الشرفة مع الجارات التي تنتهي الكثير من النقاشات بينهن بالصياح والكلام البذيء، حتى يأمرها والدها المقعد منذ زمان، بغلق الشباك والدخول إلى البيت، قبل أن يكسر رأسها كتهديد لها، في كل مرة يسمعها تتبادل الشتائم مع إحدى جاراتها.. أما والدتها فكانت تحمل همها في صدرها منذ زمان، فقد زحف إليها سن العنوسة كما تزحف الحية في رمال الصحراء، ولم تجد السبيل كيف تساعدها، لكن بمجيء ربيعة إلى جنبها بدأت تحسن بالأمان على الأقل أنها تجد مع من ترتاح في الكلام...

وصلن إلى المقر باكرا، وبعد فترة قصيرة، بدأت الكثير من النساء تخرجن من كل مكان وتلتحقن بهذا المكان، الذي أصبح اليوم بمثابة بيتهن الثاني، لكن للأسف لا يعرفن أن مصير هذه الجمعية اليوم أصبح معلقا بزواج حدة بسعيد، الذي وضع لها هذا الشرط لكي تحصل على مبتغاها وإلا فلا...

في الوقت الذي كانت ربيعة وحدة تجتمعان ببعض النساء وتناقشن بعض الأمور بكلام مسموع، كانت وردة تتفحص المكان كمكتشف للآثار حين يقع على آثار تعود إلى آلاف السنين، كان واضحا عليها، أنها جديدة في هذا المكان، فقط ربيعة وحدة، اللتان كانتا تتقدمان منها من حين لآخر، وتسران لها كلاما في أذنها، فتنفجر ضاحكة، ثم تدفعهما من أمامها... ظهرت ملامح صداقة تجمعهما منذ زمان... صداقة بدأت عرجاء بينها وبين حدة، لكن ربيعة كانت حريصة على أن تجتمعا رغم الفارق الواضح بينهما في المستوى... كما أن حدة لم تعارض يوما، الجلوس إليها، والحديث معها، والتقرب منها، ومعرفة حالها، بأسلوبها ولم تطلب منها يوما أن تخاطبها كما تحب هي، بل تحدثها بلسانها دون تكلف، تطرح مشاغلها معها، بعفويتها سواء في الكلام أو الحركات دون حرج... لأن التكلف هو الذي يقتل الشخصية الحقيقية عند الكثير من الأشخاص، كما كانت تردد عليها دائما، ومن ذلك الحين أصبحت تجلس إليها تفضفض إليها كل ما تريد... استطاعت حدة بسلوكها هذا، أن تجمع الكثير من النساء حولها، بمختلف الاهتمامات والمستويات، تسمع لكل واحدة على حدة، وتسمح لها بالتعبير كما تشاء، أرادت أن تجمع من هذا الجمع من النساء، توليفة مختلفة ولم تركز على ذوات المستوى العالي فقط، أو المثقفات، بل من كل فئات النساء، وجعلتهن سواسية في المقر على الأقل، كانت تقول دائما إذا لم نستطع نحن النساء التخلص من مركب الفوارق بيننا

فكيف يتخلى الرجال عن هذا معنا، وهم يعتبرون أنفسهم أهل القوامة والقيادة في كل مجال، كلام كانت كلما ذكرته يدوي المكان بالتصفيق من جميع النساء، اللواتي رأين فيها القائدة لهن...

بعد أن امتلأت القاعة، طلبت حدة من الجميع الجلوس، من أجل الحديث مرة ثانية، في موضوع قرار منح المصادقة لهذه الجمعية من أجل بداية العمل... لحظة كانت متصلة بلحظة صمت وهي تراقب ربيعة، لاحظت أغلب النساء هذا التواصل البصري، الذي يوحي بشيء كان يطبخ بينهما في الخفاء...

***

أحست حدة أن أحدا يتبعهما، فطلبت من ربيعة تخفيف الخطوات، حتى وصل إليهما، ذلك الذي كان يراقبهما منذ أن خرجتا من المقر، وهما متجهتان للبيت، تأخرت حدة قليلا، ثم طلبت منه ما يريد، ولِم يتبعهما منذ خروجهما، فرد عليها، أنه يريد الحديث مع صديقتها، تفاجأت حدة من كلامه، وكيف له أن يعرفها ويريد الحديث معها، التفتت ربيعة فوقعت عيناها على صاحب النظارة ارتجفت أمام حدة حتى كادت أن تسقط، ثم التصقت بها، لم تع حدة ما يجري حولها، وماذا حصل معها، ولما بدأت بالبكاء، وتطلب منها الإسراع بالهروب... طهرت على صاحب النظارة ملامح الدهشة وما حل بربيعة وهي تتعلق بحدة كأنها رأت شبحا أمامها...

...أخرج من جيبه سكينا وبدأ يلوح به في الهواء في كل الاتجاهات، وهما تصيحان، لكن لا منقذ لهما، فكل يفر في اتجاه،

لم تستطع حدة الهروب بعد ما تعلقت ربيعة بها ولم تتركها، وبقيتا كأنهما توأمان ملتصقان، نادت ربيعة بأعلى صوتها، لكن كأنهما وحدهما في الشارع، فلا أحد يريد التدخل لإنقاذهما، أي عالم هذا الذي نعيشه حين تهان القوارير في الشوارع ولا أحد يحرك ساكنا انزوتا في أقرب شارع لهما، لكنه لا يزال يتبعهما ويشتمهما بكلام بذيء خادش للحياء، حتى وصل إليهما، وانتزع ربيعة من كتفها رغم تعلقها بكل قواها بحدة، كما يتعلق الرضيع بثدي أمه...

...سمعت ربيعة صوتا يناديها، ويرجها بقوة من كتفها فاستفاقت من هذا الكابوس، سألتها من يكون هذا، الذي بقي واقفا أمامهما وهي ترتجف، كانت غارقة في التفكير في اعتداء هذا الشاب عليهما، وهو ما كانت تنتظر منه، لكنه لم يكن كذلك، فقد كانت تتصور هذا الاعتداء في خيالها فقط، بعد رهبة الكلام الذي أرسله لها في الرسالة، فحين اختارت عدم الاكتراث به جاء لينتقم منها في الشارع، أما صاحب النظارة، فبهت منها، ولم يجد ما يقول فقط طلب الاعتذار منها ومن حدة ..

...قبل أن ينصرف، سألته حدة من يكون، فرد عليها وهو يبستم هي تعرفني، لكن لم أكن أعتقد أنني سوف أخيفها إلى هذا الحد بالرغم من أنني أول مرة أراها أمامي منذ أن رحلت إلى هذا المكان... تشجعت ربيعة في هذه اللحظة، ورفعت رأسها إليه، وسألته ما يريد، بعد كل تلك الكلمات التي حملتها رسالته، أدركت حينها حدة

أن الذي يقف أمامها هو صاحب الرسالة، فجن جنونها، ودفعت ربيعة إلى جانب الطريق واقتربت منه..

- ألا تخجل من نفسك، بعد تلك الكلمات الجارحة، تأتي اليوم للحديث معها، أي نوع أنت من الرجال، ماذا حل بكم أيها الذكور فحاشى أن تكون رجلا، حين تعلقون قلوب النساء بكم، ثم ترحلون كأن شيئا لم يحدث..

بقي ينظر دون كلام، كأن لسانه انعقد، فقط يحرك رأسه ويديه من دهشته... ثم رد عليها:

- أي كلام تتحدثين عنه، أنا منذ زمان أراقبها وهي في الشرفة، وأنا واقف في الشارع العام، وكنا نتحدث بالإشارات فقط، فماذا تقصدين بالكلام؟

- الرسالة التي أرسلت لها، كان خير لك أن تطلق عليها الرصاص في وضح النهار، على أن ترميها بتلك الكلمات الدامية..

- الرسالة؟ أي رسالة تتحدثين عنها؟

التفت حدة إلى ربيعة، التي لم تفهم ما يجري حولها، أما هو فابتسم ابتسامة عريضة...

- الآن فهمت لِم انقطعت عني فجأة، ثم انصرف..

عرف الجميع في هذه اللحظة، أن شيئا كان يحاك في الخفاء لكن من ومن المستفيد من هذا كله؟

***

بعد تلك النظرات بينها وبين ربيعة، أرسلت حدة لسانها بكلام مسموع، قصت خلالها على النسوة اللواتي تكتظ بهن القاعة، ما حدث مع سعيد، الذي يريدها أن تكون له، مقابل الحصول على توقيع للمصادقة على تأسيس الجمعية، التفتت النسوة إلى بعضهن وبهتن مما سمعن، عرفن لِم غابت حدة لعدة أسابيع، عن الحضور إلى المقر، وما كان يشغلها، بالرغم من أنه لم يحدث مرة أن تغيبت عن المجيء إلى هذا المقر ولو يوما واحدا منذ زمن بعيد كانت حريصة جدا على ضرورة الالتفاف على هذا المشروع، من أجل تحقيقه مهما كلف الأمر لذا لم يشكن يوما أنها سوف تتخلى عن هذا الحلم المشترك، رغم غيابها...

عم الهدوء في القاعة، كأنهن ينتظرن شيئا سوف يقع، الكل ينظر في الكل دون كلام، أما حدة فاعتذرت منهن للانصراف والعودة بعد قليل، تبعتها ربيعة إلى خارج المقر، وجدتها تتكئ على الحائط، وهي غارقة في التفكير... وقفت إلى جانبها ولم تحدثها، فقط كانت تتساءل في نفسها، يا ترى بماذا تفكر الآن، بعدما أقرت للنساء بحقيقة تأخر المصادقة على المشروع، هل هي خائفة من ردة فعل النساء، عن تأخرها في عرض هذا الموضوع، من اجل السعي إلى إيجاد حل، بدل الهروب والاختفاء في البيت... أم أنها أحست بالراحة بعد ما رمت هذا العبء إلى النسوة من حولها، ولم تبق تحمل ألمه وحدها، لأن بعض الآلام والمشاكل التي نعيشها، حين توزع مع من هم حولنا ويشاركنا فيها الآخرون، تخف عن صدورنا منها... هل

تحس بهذا الشعور الآن. وبينما ربيعة غارقة في السؤال هنا وهناك وحدها، حتى التفتت إليها، وعيناها تلمعان بالدموع، تهم بالنزول لتفسد كحل عينيها... لفتها بذراعيها ورمتها في حضنها، ثم مسحت على محياها...كنت أعرف أنك أكثر من فتاة عرجاء كما يدعي الكثير، أنت شابة ذكية، رغم صغر سنك، طحنتك الحياة حتى أخرجت منك الأصلح كما يطحن القمح ليخرج منه الجيد للاستهلاك... ما أشرت به علي، من أجل مشاركة الآخرين في تجاوز هذه العقبة وتجنب هذه العراقيل التي وضعها سعيد أمامنا، بدل الهروب والاختباء والبكاء في الخفاء هو الأصح وأنا لم انتبه، نعم يجب المواجهة والصراحة من أجل تحقيق أحلامنا... هو قرار منك يساوي بالنسبة لي، الكثير من القرارات التي اتخذتها في حياتي، قرار حكيم، لم انتبه إليه رغم تجربتي في هذه الحياة، وصدق من قال يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر... لقد تجاوزت كونك نهرا لقد أصبحت بحرا بالنسبة لي يا ربيعة، ولك معنا شأن كبير....كلمات ارتجفت لها ربيعة، واقشعر بدنها... وبينما هما تراقبان ملامح بعضهما عن قرب وفي هدوء، حتى نادت إحداهن: النسوة ينتظرن رجوعك يا حدة...

***

تحركت حدة، بخطوات سريعة للرجوع إلى القاعة، تبعتها ربيعة بخطى متثاقلة، وهي لا تزال متعلقة بكلام حدة الأخير لها، حين أصبحت امرأة مفيدة، وحلقة وصل لا تكتمل السلسلة من دونها

في تخطي الصعاب التي تقف أمام هذه الجمعية، برغم حضورها المتأخر إلى هذا العالم، الذي تديره النساء بعيدا عن تسلط الرجال، الذين يعتقدون أنهم الأجدر بالقيادة في كل المجالات.كانت تلاحظ أبواب الحياة، تنفتح أمامها الباب تلو الآخر، وتدرجت في حياتها من فتاة راعية للبقر والأغنام في الغابة، إلى أخرى تقف في الصف الأول للدفاع عن المرأة وحقوقها، عبر هذه الجمعية التي تنتظر المصادقة... حين دخلت إلى القاعة، وجدتها غارقة في فوضى عارمة، وحدة واقفة تنتظر الهدوء، نقاش حاد بين النسوة ظهر لأول مرة بينهن، امتزج حديثهن بين الصياح المسموع في كل مكان وبين النقاشات الثنائية في موضوع المصادقة المشروطة التي تحدثت عنها حدة... ظهر من خلال هذا عدائية بعض النسوة في حديثهن عن الرجال، وكيف أصبحت الكثير من النساء معلقات بهم، لا يخطون خطوة للأمام إلا باستشارتهم، حتى ولو كان الأمر يتعلق بأشياء مشروعة لا تحتاج موافقتهم، طال النقاش الذي أصبح عبارة عن فوضى لا فائدة منها، فالكل يتكلم، لكن لا أحد يسمع، كان واجبا على حدة التدخل من أجل وضع حد لهذا، نادت حينها بأعلى صوتها بالهدوء... وهي تضرب بكل قوتها على مكتب صغير كان أمامها التفتت النسوة إليها، وانقطع الكلام وعم الهدوء مرة ثانية في القاعة، كحال الأستاذ، حينما يطلب من التلاميذ إخراج ورقة من أجل فرض فجائي...

- إذا أردنا أن نتفق ونقف على رأي مفيد، يجب أن نحترم بعضنا في الحديث، يجب أن نتجنب هذه المناقشات الأقرب للفوضى من شيء آخر، أن نظهر رفعة مقام المرأة في الطرح، من خلال قوة الفكرة وليس بالصوت العالي الذي يسمع من كل مكان، لكنه لا يفيد، يجب أن نتعلم الحديث و السمع في آن واحد، لكي نستطيع أن نجعل من مناقشاتنا مشاريع قابلة للطرح انطلاقا من المعطيات الموجودة بين أيدينا، وليس عن طريق فرض الرأي بكل الوسائل...

بعد هذا الكلام، سمع صوت الكراسي، وهي تتدحرج إلى مكانها الأصلي، بعد الفوضى الذي حصلت في القاعة، بقيت حدة واقفة أمامهن ويداها تشدان خصرها، وهي تراقب الجموع، كما بقيت أعين النسوة معلقة بها، في انتظار المزيد من الكلام، عم الهدوء في القاعة، فلا حدة أكملت كلامها، ولا إحدى النسوة، طرحت شيئا قابلا للمناقشة، بالرغم من الكلام الكثير الذي غطى القاعة قبل رجوع حدة إليها، ظهر من خلالها أنها كانت مجرد آراء من هنا وهناك، لا ترقى إلى مستوى كلام قابل للسماع ولا المناقشة...

- نادت إحداهن من آخر صف في القاعة: أنا تحرش بي مرات ومرات..

التفت الجميع إليها، امرأة تظهر أنها في العقد الرابع من عمرها تمتلئ جمالا وجسدا، لا تتجاوزها عين رجل مهما كان وضعه، وقفت وسارت نحو حدة بخطوات ثقيلة والنسوة يراقبن مشيتها وهي تتمايل كما تتمايل السنابل في الحقول، وكعبها العالي يحدث صوتا

يدوي في القاعة التي غرقت في الدهشة والهدوء، وقفت إلى جانب حدة، التي بقيت تراقبها دون كلام وهي غارقة في التفكير، كأنها تسترجع أحداثا ولحظات تشاركت معها فيها هذه السيدة، تتأمل فيها وهي في ذلك المكان الذي كانت فيه مع سعيد، تتصور كل اللحظات التي مرت بها مع هذا الخائن الذي يتقن فن العاشق المكسور الجناحين، الذي كان يلعب بمشاعر كل امرأة تمر أمامه دون استثناء،كما تلعب الأنامل بأوتار العود، لكي تصنع ألحانا شجية، لكنه يصنع هو بمكره آلاما لا تندمل جروحها وتبقى آهاتها لسنوات. استفاقت حين سمعت السيدة التي التحقت بها أمام النساء، تطلب منها أن تسمح لها بالحديث...

- ربما تستغرب الكثير من النساء هنا، من قولي أنه تحرش بي عدة مرات، وأنا امرأة متزوجة، نعم هو كذلك، لقد استغل هذا المنصب من اجل الابتزاز، تواصلت معه في بعض المرات، حين كنا نلتقي صدفة في بعض الأماكن والمنشآت الرسمية من أجل قضاء بعض حاجياتي، وعرض علي منصب عمل، دون حتى أن يعرف مستواي ولا اتجاهي ربما فقط من شكلي، في البداية كنت اعتقد أن الأمر عادي، لكن حديثه معي، كان يسير في اتجاه واحد - تبتسم وتتوقف عن الحديث -، وصل في يوم من الأيام إلى دعوتي إلى مرافقته إلى اجتماع ليلي، وهنا اكتشفت أمره، ومزقت شباكه التي بدأ يخيطها من حولي، قبل أن يكملها ويحاصرني...

...كانت ربيعة تراقب حدة، وهي تتأمل تلك السيدة وهي تتحدث عن سيرة سعيد، أدركت أنه كان يمثل مع كل امرأة نفس الدور لكنه يغير الوجوه، استغل الظروف التي تمر بها بعض النسوة، من أجل محاصرتهن في جحره، ينتقل بين خصر النساء، ويختار ما يشاء، على قدر متعته، لا يكترث لمن ترفض طلبه، مادامت الكثير من النساء في حاجة إلى دعم الرجل، في الكثير من المجالات، وفي منصب، لا يمكن أن لا يطرق بابه من طرف النساء، فقط كان ينتظر فحسب، فهو يعرف الطارق...

كان اعتراف هذه السيدة، أمام النساء، مما حصل معها من طرف سعيد، بمثابة توثيق لأخلاق هذا الشخص المخادع والماكر الذي يستغل منصبه من أجل الوصول إلى أكبر عدد من النساء رجل شاذ، يراوغ المرأة التي تقترب منه وينحني أمامها تضرعا ويسقط أمام رجليها توسلا، حتى تحين اللحظات التي تقع فيه، هنا ينتقل إلى المرحلة الأصلية في مشروعه مع النساء وهو التمتع واستغلالهن وهن يتخبطن في شباكه...

- يجب الوقوف أمام هذا الخبيث بكل الطرق، ولن تصبح حدة زوجته مهما حدث من أجل ختم على ورقة...

جملة نادت بها إحداهن من وسط الجموع، كان وقعها كبيرا على القاعة وليس على حدة فقط، التفتت النساء بحثا عن هذه التي طالبت بضرورة منع هذا الزواج مهما حدث، فإذا بها ربيعة، التي ختمت هذه الجلسة بدموع ساخنة أبكت كل الحضور، بكاء عميق

عكس معاناة حدة وربيعة والسيدة التي أقرت بما حدث معها مع سعيد، وربما الكثير من النساء الأخريات في هذه القاعة وفي الحياة عامة، تعرضن لهذه المواقف من طرف رجال في شكل سعيد موجودون في كل مكان، لكنهن فضلن السكوت خوف أو خجلا، ففي الكثير من المرات تكون المرأة مجرمة حتى ولو كانت بريئة...

يوم ارتقت فيه ربيعة ارتقاء حقيقيا بين النساء، حينما أخذت الكلمة دون طلب من أحد، وتحولت منذ تلك اللحظة إلى امرأة قائدة في فكرها وسلوكها وشجاعتها، استطاعت أن تعلن وقوفها الند للند أمام كل المشاريع الخبيثة التي تحاك في الخفاء ضد جنسها، أقسمت رفقة النسوة أن لن تكون هناك ضحية أخرى، من أمثال حدة وغيرها...

دخلت ربيعة مسرعة تبحث عن وردية، بصوت مسموع وتطرق عليها باب بيتها، فتحت الباب، فاصطدمت بوالدتها، كادت أن تحملها بين ذراعيها، اعتذرت منها، وقبلت يديها، ثم دخلت وهي تنادي وتبحث عن وردية، التي كانت في الحمام، وحين سمعت صوتها، هرولت إليها ولا يزال بعض الغسول يلون شعرها..

- وشبيك خلعتيني

- تصوري اليوم، من كان يتبعنا أنا وحدة من المقر، حتى إلى الشارع، وفوق هذا اعترض طريقنا..

- الشرطة

- انفجرت ربيعة ضاحكة ولِم الشرطة لسنا مجرمتين... إنه صاحب النظارة,

- سقطت المنشفة من فوق كتف وردية حتى انكش بعض من جسدها من المفاجأة، ابن الكلب ميحشمش، واش كان يحوس مازال يدور بيك,

- من كلامه استنتجنا انه ليس صاحب الرسالة ولا يعلم عنها شيئا

- مستحيل؟؟؟؟؟

- نعم، وقوفه في الشارع العام إلى هذه الساعة يراقبني، بعد تلك الرسالة، لم يكن من اجل استفزازي أو شيئ آخر كما كنت اعتقد فقط لو أتذكر، ملامح ذلك الطفل الصغير الذي حمل إلينا تلك الرسالة، لأنه هرب مباشرة، بعد ما لمستها أناملي حتى أنها سقطت قبل أن أمسكها..

- هو وليد جارنا الذي يسكن فوقنا مباشرة..

عم الهدوء بينهما وكل تراقب الأخرى، كأنهما استنتجا نتيجة واحدة، أو تفكران في نفس الشيء في اللحظة نفسها..

طلبتهما حدة، فهرولتا إلى غرفتها، ابتسمت لهما، لأنها كانت تعرف أنهما، يناقشان موضوع صاحب النظارة وما حدث معه اليوم في الشارع...

- أعتقد أن صاحب الرسالة، يسكن معنا في هذه العمارة وأعرف أنه نفس الاستنتاج، الذي توصلتما إليه، وهذا أمر طبيعي والأكثر من هذا، والأكيد أنها فتاة وليس شابا، لقد استطاعت أن توقع بينك وبين ذلك الشاب الذي يظهر انه شاب طيب ومهذب ولا أزكيه على كل حال، فأغلبهم يظهر الود والإحسان، والغرام والعشق والهيام وكل ما يجذب المرأة إليهم، وحين تقع في حبهم، ينتقلون إلى الطرف الأخر من الأحاسيس والإهمال والغياب، وأكثر من هذا الخداع والخيانة...

لم يكن يهم في هذه اللحظة في هذه الجلسة، ما يحمله الرجال للنساء في قلوبهم وسلوكهم وهذا أمر آخر يمكن الحديث فيه في مناسبة أخرى، لكن أصبح المهم، من تكون وراء تلك الرسالة الجارحة التي كلما ذكرت كلما رجع دوي كلماتها يدوي في المكان وكيف لمن لا يعرفك يحمل لك كل تلك الضغينة، خاصة حينما تكون من نفس جنسك، الحسد درجات والغيرة درجات في الألوان لكن حينما يصبح لونها أسودَ قاتما، يكون الأمر مفزعا ومخيفا، ربما يصل إلى إلحاق الضرر بك، فمن يستطيع أن يجرح مشاعرك وأحاسيسك بتلك الكلمات الحادة أكثر من "شفرة" ذبح الأضحية

أكيد أنه مستعد للانتقال إلى خطوة أخرى، من أجل النيل منك وهي الاعتداء عليك جسديا لو تكون الفرصة مواتية...

أشارت عليهما وردية بالخروج للبحث عن ذلك الصبي الذي حمل تلك الرسالة المشؤومة، وهو لا يعلم أنه ببراءته جرح مشاعر لا يمكن للأيام أن تحمل لها الشفاء، حتى ولو استشهدت بخير الأطباء... نظرت ربيعة إلى حدة، بعد هذا الاقتراح...

حملت على جناح السرعة إلى أقرب طبيب، والنساء من حولها يدعين لها بالشفاء، قبل أن تسقط في القاعة كما تسقط الشجرة بعد قطعها، دوى سقوطها في المكان بعد ما طارت الأوراق قي كل الاتجاهات، ارتفعت الأصوات وسارعت النسوة إليها يحملنها إلى مكتب صغير، كقصاصة ورقة تلعب بها الرياح في السماء ولا تستطيع المقاومة، وبقيت تراقب ما حولها، بعينين نصف مفتوحتين، لكنهما انطفأتا بعد ما راقبت كل من كان حولها، كأنها تريد قول شيء، لكنها عجزت عن الكلام...

...بعد استشارة طبية طويلة، خرج طبيب إلى النسوة اللواتي قررن البقاء معها ومن بينهن ربيعة، التي لم تتوقف عن البكاء، فهي المرة الأولى التي تحضر لسقوط حدة المرعب. عاشت معها كل التجارب القاسية من ألم، وحسرة وجفاء المشاعر والأحاسيس وغدر الرجل الذي تعلقت به حقا، لكنه خذلها، من خلال ما كانت تقصه عليها، وكذا صبرها وتحملها كل الأذى، من أجل الوصول إلى تأسيس هذه الجمعية، لكنها لم تحضر إلى هذا الموقف من قبل

وحدة أمامها دون حركة ولا كلام، عاشت معها الكبوة، لكنها ليس إلى درجة السقوط على وجهه مباشرة حتى أفسدت بعضا من ملامحها. رأت ربيعة من خلال هذا السقوط، أحلامها تتشتت وتنطلق في الهواء كمن يمزق دفاتر دراسته في نهاية السنة ويرميها في الهواء غير مبال بها، شدها إحساس رهيب، كأنها فقدت حدة إلى الأبد، أو لن ترجع إلى ميدان التحدي والمواجهة، أحست في لحظة ذلك الضياع، الذي عاشته منذ زمان، لكنه اختفى بعد ما التقت بحدة، وهي اليوم ترجع إلى نقطة البداية وكانت تتخيل ذلك، فقد تهاوت من انتشلتها من حياة كانت فيها لا محل لها من الإعراب، إلى أخرى أصبحت أدوات تعريفها مختلفة وفي كل مكان، فأينما تولي وجهك تجدها هناك...

طلب منهن الطبيب، من هي الأقرب إليها من النسوة، فالتفتن إلى ربيعة، التي لا زالت تقاوم دموعها في الفناء الخارجي للعيادة الصغيرة، فطلب منهن مناداتها، واللحاق به إلى مكتبه... دخلت عليه وهي تجفف ما تبقى من دموعها، فطلب منها الجلوس... خرجت بعدها وهي تجر قدميها وزاد شهيقها، التفت النساء حولها، لكنها لم تستطع الكلام.. دخلت على حدة فوجدتها قد استفاقت من غيبوبتها، وهي تبتسم، حتى المرض لم يهزمها وهي تقاومه بضحكاتها ونكتها التي لا تنتهي، وهي تسخر، من ربيعة بعد ما رأت دموعها تتدحرج رويدا رويدا فوق محياها الجميل.

- هل تعتقدين أنني سوف أموت وأتركك تأخذين مكاني,

انزعجت ربيعة من هذا الحديث بالرغم من انه مجرد مزاح حينما ذكرت حدة الموت في حضرتها، بالرغم من أن والدها مات أمامها ولم يحرك فيها الكثير، وبكته عزاء لا حبا وكرامة، لكن حينما تعلق الأمر بحدة، فقد تحرك كيانها كله وعاشت فراقها الأبدي في ثوان، بالرغم من أنها لا تزال حية ترزق أمامها..

- طلب مني الطبيب ضرورة نقلك إلى المدينة من أجل بعض التشخيصات والتحاليل..

زالت ابتسامة حدة وظهرت تجاعيد الحزن فجأة على وجهها وهي تتمتم بكلام غير مسموع، أرادت ربيعة معرفة ما تقول، لكنها ردت عليها..

- لا شيء، لا شيء، وهو كذلك غدا ننطلق إلى المستشفى في المدينة.

حملتها ربيعة والنسوة على كرسي متحرك إلى بيتها، لا تستطيع السير على قدميها، لقد أرهقتها الأيام الأخيرة، كأنها تتعجل لشيء يجب أن تنتهي منه...

أخذتها وردية في حضنها، وتهاوت على كتفها دموعها، اجتمع بكاؤها بشهيق ربيعة، التي لم تستطع التوقف عن البكاء، منذ اللحظة التي سقطت فيها حدة مغشية لا حركة ولا كلام... ليلة حزينة لم تكن في الحسبان، جلستا إلى جنبها يراقبنها باهتمام، أما هي فبقيت بين الشعور واللاشعور، تراوح مكانها، تبتسم في بعض

الأحيان كأنها تستمع لشخص يحدثها سرا، أو ربما يراودها حلم ذلك اليوم، الذي تنادي به بين جموع النساء.. لقد انتزعنا المصادقة رغم كل العراقيل. وهما يراقبانها طوال الليل رغم تعب السهر والجلوس، حتى نادى ديك بحلول يوم جديد يدعو الجميع للاستيقاظ...

***

طرقت الباب، فوقفت أمامها جارتها مسعودة، أخذتها بالأحضان كأنها لم ترها منذ زمان، بالرغم أنهما لا تنقطعان، عن التواصل من فوق الشرفات، تعتبرها جارة مسالمة، لا تفارقها الابتسامة كأن أيامها كلها سعادة، تجاوزت عقدها الخامس بقليل كانت من بين السكان الأوائل الذين سكنوا العمارة رفقة أهل وردية طلبت منها الجلوس وجلستا قبالة بعضهما، دخلت عليهما سليمة بنتها البكر، لكنها عادت أدراجها قبل أن تتفطن وردية، لكن هذه الأخيرة أحست بها دون الالتفات. بقيت وردية تراقب مسعودة، كأنها تفتش عن شيء في ملامحها، أما مسعودة فتبادلها النظرات والسؤال عن حالها وحال والديها، حتى وصلت إلى سبب زيارتها اليوم، هنا اهتزت وردية كأن أحدا أيقظها من نومها...

- في الحقيقة جيت نحوس على سليمة نحتاجها في موضوع خاص، انكمش وجه مسعودة، واختفت ابتسامتها فجأة، فهي تعرف بنتها، بنت تمشي متمايلة تتقن فن مداعبة حتى من هم غير مهتمين بها، وتطرق أبواب الصمت، عند كل شخص، لتوقظ فيه

الرغبة في الكلام، كثيرة الحديث والكلام والتباهي في حضرة الرجال والأكثر من هذا، ترسل الفتاة الفضولية التي تحملها بداخلها لتقصي الأخبار من وراء الجدران، أينما سمعت كلاما مسموعا، من أجل معرفة كل صغيرة وكبيرة، وما يحدث في العمارة، وحتى ما يحدث في العمارات الأخرى، حين تشارك ما يحدث عندها مع بعض الفتيات، مقابل مشاركتهن لها، بما يدور في العمارات الأخرى، حتى أصبحت تعرف كل شيء في هذا الحي، حتى تشاجر القطط والكلاب، وموعد ولادتها...

- ياخي غير الخير، ردت عليها مسعودة

ابتسمت وردية ابتسامة تخفي أن في الأمر شيئا، وإلا ما حملت نفسها بالمجيء إليها شخصيا في هذا الوقت.

نادت مسعودة بصوت مسموع، بحضور سليمة التي تثاقلت في الرد عليها، حتى همت والدتها بالنهوض للبحث عنها، لكنها دخلت عليها بعد هذا التأخر المصطنع، جلست خلف والدتها مثل فتاة صغيرة تتجنب الضرب، من طرف شخص أقام عليها الحجة...

أدخلت وردية جيبها في فستان وردي، بجيب كبير عند نهاية بطنها وأخرجت الرسالة،

ارتفعت سلمية من مكانها، حتى أحست والدتها بركبتيها تضربان ظهرها، فعرفت أن في الأمر إن، كما يقال،

- البرية هذي نتاعك سليمة

فتدخلت والدتها وهي تبتسم، قبل أن تجيب بنتها،

- بنتي ما تعرف تقرا ما تعرف تكتب، موحال تكون البرية نتاعها..

والتفتت إلى سلمية من أجل تأكيد كلامها..

لكن سليمة انكمشت كما ينكمش الحلزون في قوقعته، ولم ترد لا بالسلب ولا بالإيجاب، وبقيت تستمع لحديث وردية مع والدتها..

بعد حديث طويل، استطاعت وردية أن تحدد كل أركان هذه الجريمة، تسمية أطلقتها ربيعة وحدة، وهما يستمعان إلى وردية وهي تروي لهما قصتها في البحث عن أثر تلك الرسالة، توجها بعدها بالمفتشة وردية، وهما يتبدلان الضحكات، مستغربتان قدرتها، في الوصول إلى الحقيقة في ظرف قصير، من مجرد شد ذلك الطفل الصغير الذي حمل إليهما الرسالة، من أذنه، من أجل أن يقر من أعطته ذلك المرسول، والتي اتضحت بعد شد وجذب مع سلمية أنها من صديقة لها، في العمارة المقابلة، كانت في نفس الصف الدراسي، مع صاحب النظارة، كانت تحمل له مشاعر، لكنه لم يكن يبادلها نفس الأحاسيس، فقط مجرد زميلة في الدراسة، فقد كان شابا مهتما بالدراسة قبل كل شيء، وحين علمت من سليمة مغازلته لربيعة، عملت على التخلص من هذه القصة بكل الطرق، لذا اختارت معايرة ربيعة بعرجها، لأنها تدرك أثر هذا في نفسها، خاصة حينما يكون على لسان صاحب النظارة، واستطاعت أن تصل إلى هدفها، بعد ما خبت تلك المشاعر بينهما، لمدة شهور، وخلقت تلك الفجوة، التي دفعت ربيعة، للقفز على هذا الشعور، حتى ولو لا يزال ينبض في صدرها...

بدأت تلك المشاعر التي كانت تحملها ربيعة لذلك الشاب، تغلي كغلي الماء يريد أن يفيض خارج الإناء، كانت لاهية في التفكير، ولم تعد تهتم بالتفاصيل الأخرى التي لازلت وردية تسردها عليهما، كأنها أخذت المهم في كل هذه القصة، وأصبحت لا تبالي بالباقي، لاحظت حدة، شرودها وهي تراقب النافذة وتبتسم، أدركت حينها أن عودتها، سوف تكون قريبة إلى وكرها، الذي دفعت منه بالخطأ وترجم ذلك الشعور على ملامحها، كشعور الطائر الذي انكسرت جناحاه، وبعد شفائهما، أصبح مندفعا للتحليق من جديد...

***

حملتهما في الصباح الباكر، نفس السيارة، التي سارت بهما في المرة الماضية إلى المدينة، عم الصمت والهدوء، وغرقت حدة في النوم، وبان عليها التعب والإرهاق، بقيت ربيعة تراقبها وتمسح على وجهها، وتداعب خصلات شعرها المتعرقة، وتشد على معصمها وشراييها، تنبض بسرعة، كأن دمها يريد الخروج. نسيت خلالها الفضول في معرفة ما تصادفه في الطريق، كحال الغريب الذي يزور الأماكن لأول مرة، فهي المرة الثانية التي تزور فيها المدينة، فحال حدة، لا ينبئ بخير، لأن حالتها تدهورت بين عشية وضحاها، وظهرت عليها علامات لم تكن في السابق. تذكرت ربيعة حال والدها، وذلك الصمت الذي عاشته معه، كان يتابعها فقط بمقلتيه حتى صار إلى جوار ربه، وهي اليوم تعيش نفس الذكرى مع حدة، التي توقفت فجأة عن الكلام، فقط في بعض المرات تفتح عينيها، تراقب ما

حولها ثم تعود إلى نومها... امتزج فزع ربيعة من وضع حدة، مع بكائها، كان صاحب السيارة يراقبها في المرآة العاكسة، لكنه لا يجد ما يطمئنها به، كأنه كان يعرف مسبقا، أنه لا الكلمات ولا المواساة سوف تريح ربيعة، فالسيدة التي تنام في حجرها، هي كل ما لديها...

...خرج الطبيب بعد فترة من الزمن، وطلب من ربيعة، معرفة نوع القرابة بينها وبين حدة، لم تجد ما ترد عليه فقط هي مثل أختها وكل ما لديها، نظر إليها متأملا،كأنه عجز عن الكلام، وهي في الغالب الطريقة التي يتبعها الأطباء، حين يحملون خبرا سيئا لأهل المريض. ومن أجل تخفيف وطء كلماته عليها أو هروبه من مسؤولية نقل خبر مفجع إليها، قدم لها، ورقة تأملتها، ثم ردتها إليه، لأنها لا تتقن قراءة اللغة الفرنسية، على الأقل ما يكتبه الأطباء، اقترب منها قليلا، ثم أسر إليها ببعض الكلمات، التي كانت بمثابة رصاصة، سقطت خلالها ربيعة، وافترشت البلاط، فحملها الطبيب ووضعها على أقرب كرسي أمامه ثم انصرف....

...تزرع الحياة أمامنا الكثير من الأشواك، وكذا الكثير من الورود، نجتهد في كلا الحالتين، من أجل أن لا ندمي أقدامنا، وكذا لنحافظ على حياة هذه الزهور، ونعالجها من الذبول، تتساقط الكثير من الأحداث في حياتنا كما تتساقط أوراق الخريف، وتجرفها الرياح حتى تصبح خارج الوجود، نحس في بعض اللحظات من الحياة، أننا فقدنا الرغبة في العيش أكثر، وهذا حينما نحمل نعش من كان الصديق والأخ والقريب والتوأم، فقد كان ذلك الذي يعدل

خطواتنا، لكي لا نقع مثل الطفل الصغير، كان المنقذ لنا، حين نقع في ورطة لا يمكن الخروج منها، أينما نولي وجوهنا نجده أمامنا يعطينا الثقة في الحياة، ويضخ دائما دماء جديدة في عروقنا، يذكرنا دائما أنه في حياتنا، حتى ولو لم يكن معنا، يربطنا به خيط رفيع لا ينقطع، مهما حدث... أحست ربيعة بكل هذا الشعور، وهي تراقب حدة أمامها، لا حركة ولا كلام، ماعدا صوت أنفاسها الذي تتابع سريعا، كأنها تختنق، تأتي ممرضة وتذهب وتأتي أخرى، كل تقوم بهمة كأنها فأر تجارب... ما أقرب الفناء منا، اليوم هنا وغدا ليس كذلك، كأننا لم نعش ولم نجر فوق هذه الأرض، لم نفرح ولم نبك لم نسافر ولم نستقر، كانت حدة بالأمس تلهو وتضحك، تحمل بين أيديها مستقبل جمعية وئدت في الكثير من المرات قبل ولادتها، لكنها اليوم هي نفسها تصارع الفناء، وربما تعيش الجمعية من بعدها وهي لا... قد نذهب من هذه الحياة، قبل أن تكتمل الكثير من أمانينا نتركها في بدايتها ونرحل، ربما يأتي من يكملها من بعدنا حبا فينا وربما تصارع البقاء حتى تفنى من بعدنا، دون أن تكتمل...

بينما هي تراقب حدة عن قرب، حتى خطرت لها فكرة، ماذا لو حملت نفسها، وطرقت الباب على سعيد، فهو ليس ببعيد من هنا أترى هل يردها على أعقابها أو يتعرف عليها وتحدثه عن حال حدة هل يهتم لأمرها، ويحمل نفسه، على الأقل لزيارتها وهي على فراشها اليوم تصارع مرضها الخبيث، أم أنه كان مهتما بها حين كانت تحلق مثل طائر جميل، وحين أصبحت ضريرة عليلة لا حاجة له بها

ترددت في السير نحو مكتبه، لكنها تشجعت وذهبت تخاطب ذلك الغريب، الذي يتحمل جزءا كبيرا فيما هي عليه حدة اليوم، بالرغم من أن مرضها ليس إرهاقا من طول السهر وهي تتبعه في أحلامها، أو ضربا مبرحا تلقته منه حين أغضبته، حتى أصبحت اليوم طريحة الفراش، بل شيء خبيث يحاصرها من الداخل، تتآكل وهي تسير على قدميها دون أن تدري، وحين أكمل بعض من خلايا جسمها أرهقها فلم تستطع الوقوف...

حملها السائق إلى مكان عمل سعيد، صعدت إلى الطابق الثاني وطرقت الباب عليه، انتظرت قليلا، لكن إحداهن أخبرتها أنه خرج لكنه سوف يعود، وطلبت منها الجلوس في قاعة الانتظار، ترددت ربيعة قليلا، وراودها شعور، هل عدم وجوده في هذه اللحظة بالذات؟ هي علامة على أنه سوف يطردها، حينما يعرف أنها رفيقة حدة، قبل أن يعرف ما جاءت من أجله،.. بقي هذا الشعور يجول بداخلها، فلم تستطع البقاء وفي نفس الوقت لم تستطع الرحيل وبينما هي بين هذا وذاك، حتى وقف عندها سعيد، استقبلها، قبل أن يدعوها إلى مكتبه، تبعته وهي تجر قدميها من التعب، حتى جلست قبالته في مكتبه...

وقف إلى جانبها، وهو يتأمل ملامحها دون كلام، ربما كان غارقا في صورة حدة القديمة، تلك الفتاة التي راودها عن نفسها في الكثير من المرات، وحتى إلى اللحظة الأخيرة، لا يزال يطاردها كما تطارد الوحوش فريستها، تلك التي حملها إلى وكره السري، ويوهمها بهيامه

في حبها، ولا يستطيع العيش من دونها كذبا، حتى ينال منها وينصرف، وهي لا تدري، أنها رفقة أب أولاد، سهرت الليالي، من أجله وتعلقت به حتى تعبت من طول الانتظار، تعد الأيام بعد غيابه وكان هو لا يبالي، قسم وقته شطرين، بين زوجته و وأولاده في الدشرة، وبين حدة في القرية الصغيرة، أما هي فكان هو كل وقتها وفي الأخير، سقط القناع واكتشف أمره، فكان واجبا عليها الرحيل دون رجعة، تجر ذيول الألم، وحين شفيت من جرحها، وأعادت تلوين ما خدش من كبريائها، عاد إليها من أجل الزواج بها، كما يدعي، فمن كذب عليك المرة الأولى، لن يتوقف عن الكذب عليك مهما حدث، ومن خانك مرة، سوف يخونك مرات ومرات، ولن يتوب من فعلته.

عم الصمت في غرفة الإنعاش، كل يفتش عن ملامح حدة القديمة بعد ما، ذبلت كما تذبل الأزهار تحت شمس الظهيرة... لم يعرف سعيد ربيعة ولم يتذكرها، حينما ذهبت إليه، إلا بعدما حدثته عن حال حدة، وهي في المستشفى، تتوسل أملا ضعيفا لكي يبقيها في هذه الحياة ولو لشهور أخرى، وحين علم هرول إليها مسرعا، ولم يتردد لحظة، لكن ماذا يستطيع أن يقدم لها اليوم وقد كانت بالأمس تقف أمامه تطلب منه حقها في المصادقة على الجمعية، لكنه رفض وعلقها بشرط يظهر أنه أصبح مستحيلا

فهل يسقط هذا الشرط، حينما وقف على حالة حدة، أم أنه سوف يعاقب النساء الأخريات بأثر رجعي؟

حملتها ربيعة في السيارة، وعادت بها إلى القرية، وسعيد يتبعهما أحست خلالها أنها تسير في جنازتها، شعور لا يريد أن يطير من ذهنها، لا تدري لماذا، أترى أنها أسقطت تجربة والدها عليها، فكل من يسقط ولا يتحرك ولا يكلم حتى أقرب الناس إليه بعدها، يصبح لا أمل في شفائه، أم أن خوفها عليها، وحبها لها، سبب هذا الشعور الذي سكن قلبها وتفكيرها...

أصبح من الصعب، على النسوة تصديق غياب حدة عن الذهاب إلى المقر، بعدما ثبت عجزها الكامل، عن السير والحركة، بقيت طريحة الفراش، تتآكل كما يتآكل الحديد في التراب، جفت عروقها بعد أيام وشحب وجهها وتغير لونها، وبدأت تفقد الكثير من ملامحها، غير أنها استطاعت في الآونة الأخيرة أن تتواصل مع ربيعة ووردية اللتان لا يفارقانها أبدا، ليل نهار، كأنها تروي لهما، ما بقي في صدرها قبل الرحيل، بكلمات صعبة ومتقطعة، تقطع معها قلب ربيعة، وهي تحاول أن تخرجها من بين شفتيها، وقد كانت بالأمس، تحرك زوايا المقر حين تتحدث... تسارعت الأيام، ووصلت حدة إلى هذه الحالة، التي لا أمل للشفاء منها، كما أخبرت ربيعة وردية، وهذا ما قاله لها الطبيب في المدينة، حين أخبرها أنها وصلت إلى المرحلة الأخيرة من مرضها...كما عرفت ربيعة لأول مرة الكثير من الاستشارات الطبية التي كانت تقوم بها حدة في الخفاء ولم تبدها

لها، بعيدا عن أعينها، ولم تخبرها يوما، على حالها وما تعاني منه، على الأقل من أجل السماع لها فحسب، ربما أرادت أن تخفي مرضها، حتى لا يكون أثره سلبيا عليها وعلى النسوة، من أجل إتمام هذا المشروع، لكن المرض هزمها وأقعدها رغم شجاعتها ومقاومتها له منذ شهور، كما أقرت أخيرا لهما...

عانت في صمت ووحشة، دون أن تخبر حتى من هم أقرب إليها. كانت ربيعة تروي حكاية حدة وشجاعتها بالرغم من أنهن يعرفنها قبلها، نساء بقين حائرات فيما يفعلن من دونها، فقد كانت الأمل الوحيد لهن، ومثل شعلة أخيرة من اجل الوصول إلى نهاية الكهف المظلم والخروج إلى ضوء النهار، خلفتها ربيعة في الحديث ولم يرفض أحد هذا المنصب، فالعديد من النساء، لم تكن لهن الشجاعة لكي يقفن في الصف الأول، لذا يحتجن إلى من يريهن الطريق دائما وفجأة أصبحت ربيعة بحكم قربها من حدة، القائد الأول، حتى لو اعترضت بعض النساء على مضض، لكنهن لا يقدمن البديل، ولا يستطعن السير أمام الجموع من أجل هذا المشروع، فليس كل من يؤمن بفكرة قادر على الدفاع عنها من أجل تحقيقها واقعا، وهن يكمن الفرق بين القائد والمقود، وهذا ما كانت تتجاوز به حدة الأخريات، ظهرت من بعدها هذه الخصال في ربيعة، وكأنها ضخت في عروقها، ما كانت تحمله هي في دمائها، واتفقن على أن تكون ربيعة المسؤولة على الاجتماع في المقر، ومن تريد الترشح لهذا المنصب عليها أن تكون الأجدر به، غير أنه وبين المد والجزر والحديث الذي

لا ينتهي، اتفقن على إبقاء ربيعة على الأقل في الفترة الحالية، بحكم قربها من حدة، وهي أدرى بما كانت تخطط له، لذا لا يجب تضييع الوقت في المشاحنات والجري وراء المنصب، فكل في أوانه، والأهم الآن هو ضرورة إكمال المشروع، الذي ضحت حدة بكل وقتها من أجل تحقيقه منذ سنوات طويلة...

مرت الأيام، واستطاعت حدة، استعادة بعضا من قوتها أصبحت تقدم بعض النصائح لربيعة كل يوم قبل خروجها للمقر كأنها تشحذها وتحضرها ليوم جديد في حياتها، خاصة وأنها أصبحت محل اهتمام بين النساء في المقر، وهي أصغرهن سنا لكنهن لم يعترضن على هذا، لثقتهن في حدة منذ البداية، وكذا لتمرس ربيعة في الكثير من المسائل، رغم حضورها الحديث للمقر عكس هذا قدرتها على القيادة، وهي محاطة بنصائح حدة...كما أصبحت وردية ترافقها إلى المقر، واندمجت هي كذلك مع النساء الأخريات. أرادت أن تتشاجر مرة واحدة، حينما اقتربت منهما فتاة مراهقة، وقالت لربيعة: أنا من عيرتك بالعرجاء، وأنا صاحبة الرسالة، ثارت ثائرة وردية حين سمعت منها هذا الكلام، لكن ربيعة هدأتها بقولها: هي حقيقة أنا عرجاء ولِم النرفزة يا وردية، الناس يلقبونك كما يرونك،.. ثم انصرفت.

جملة أفحمت الفتاة المراهقة، ووردية، ظهر من خلالها ترفع ربيعة أن فتات الكلام والتركيز على الأهم، كان درسا قاسيا للمراهقة، التي انصرفت على عجل...

***

لم تمر إلا أيام قليلة، حين زار سعيد المقر مرة ثانية، اجتمعت كل النسوة حوله، حتى شك أنهن يردن الاعتداء عليه، خاصة وقد كان يسمع كلاما قاسيا، من هنا وهناك من كل زاويا المقر، بالسؤال عن حاجته هنا وماذا يريد، لم يستطع الكلام، وبقي يراقب المكان دون أن يدعى إلى الجلوس، حتى دخلت ربيعة تحمل الكثير من الأوراق وحين لمحته، اقتربت منه، أحسن بالأمان بعدها، دعته للجلوس في المكتب الصغير، وكانت المفاجأة حين أخرج الختم من جيبه من اجل المصادقة على هذه الجمعية دون كلام ولا مناقشة لم تكد تصدق ربيعة ما تراه أمامها، فبعد أن عارض الفكرة منذ البداية بالرغم من تنقلها هي وحدة إليه إلى المدينة، لكن اليوم أتى هو بنفسه، وأعلن ميلاد جمعية الدفاع عن المرأة في القرى الصغيرة والأرياف، عمت الزغاريد، في المقر واكتظ بالنساء، وهرولت ربيعة تحمل الأوراق بين يديها تطير في السماء رغم عرجها، مبتسمة ضاحكة، مستبشرة، لكنها اصطدمت بوردية، في الطريق لإخبارها بأن حدة رحلت من هذا العالم...

لم تستطع ربيعة، هضم ما يحصل في هذا العالم وهي تراقب هذه الورقة التي عانت حدة للحصول عليها، وكأنها في الأخير استسلمت، وأهدت روحها لهذه الجمعية، فرحلت هي من هذا الوجود، وجاءت هذه الجمعية لعالم الفناء في مكانها، ورغم

إصرارها، على تأسيس هذه الجمعية منذ سنوات طويلة، إلا أنهما لم يلتقيا في الطريق، دخلت واحدة وخرجت الأخرى في صمت.

رحلت...بعدما ألبست ربيعة حذاء ستر عرجها... فارقت الحياة بعد صراع طويل مع المرض، لم تظهر ملامحه وحين ظهرت خطفها على حين غرة، وهو ما كان يحزن ربيعة حين تتذكرها، كانت تلوم نفسها حين تركتها وحدها، وهي تصارع هذا المرض الخبيث، الذي كان واضحا من البداية، أنه هزمها، بقيت فقط الضربة القاضية لكي ترسلها إلى مثواها الأخير، وهي المرة الثانية، التي يراوغها الموت ويخطف أحدا من بين يديها، قبل أن توصله إلى باب الفناء، غير أن وفاة والدها في وحدته لم تؤثر فيها، كحال حدة، التي كانت كل الأمل بالنسبة لها، لأنها صنعت منها اليوم بنتا تدافع عن حقوقها، بعد ما كانت راعية غنم وحمالة الحطب في الدشرة، لقد مهدت لها الطريق، لكي تصبح في يوم ما امرأة يضرب بها المثل في التحدي، رغم صغر سنها وعرجها الذي كان يؤرقها كلما نظرت النسوة من حولها إليه، لكنها اليوم أصبحت لا تبالي، فقد استطاعت أن تجد لنفسها مكانا بينهن هن الأصحاء وهي العرجاء...

حملها الرجال على الأكتاف إلى المقبرة، والشيخ الهرم يجر قدميه بعد ما خسرها دون أن يجلس إليها أو ينظر في ملامحها قبل أن ترحل، لم يستطع أن يشتري لها ما تشتهيه وهي على فراش الموت وأن يتنقل بها بين كل المستشفيات بحثا عن الدواء الشافي، لقد

خطفها الموت، قبل أن يلحق بها ويشدها من قميصها، أملا في أن لا ترحل، لكنه القضاء والقدر...

بكاها الشيخ وربيعة ووردية طويلا، وبكتها النسوة، وبقيت ذكراها معلقة في الأذهان، وكان واجبا على تخليد ذكرتها بتسمية الجمعية على اسمها...

لماذا انتظر كل هذا الوقت، لكي يصادق على الجمعية التي عانت الكثير من أجل الحصول على ختم تأسيسها؟ هل انتظرها حتى تذهب إلى دار الفناء، ويكرمها بهذا النجاح، لماذا لا نكرم بعضنا في الحياة، وحين يموت الواحد منا، نهب إليه مثل الريح، نبكيه ونقدم له ما اشتهاه في الحياة، لماذا لا نقر أن هذا الشخص يستحق الأفضل، بعيدا عن حسابات الدشرة وابن القرية، والأنثى من ضلع اعوج، والذكر يتجاوزها بالقوامة، لماذا لا نتعامل بمعيار الإنسانية بعيدا عن اللون والأصل والشكل، بل نحتكم إلى الجهد والاجتهاد وما يقدمه الواحد منا، كإضافة لهذا العالم، لقد صنعنا لأنفسنا حواجزا حرمتنا من إنسانيتنا، بل نبكي بكاء كذب حين نواجه بعضنا بعضا، لكن في الخفاء، نرقص لهزيمة أو انكسار غيرنا، لماذا عزاؤنا لبعضنا يأتي متأخرا، لقد أصبحنا نؤمن أن الفرد حين يموت يصبح أغلى، وهذا ما نراه حين يرحل الواحد منا، حين تحمل له الهدايا والتكريمات، ويوقر خير وقار، فلو كان العكس، ما احتقرنا بعضنا ونحن أحياء، وحين نموت نسارع إلى ذرف الدموع والبكاء على الأطلال.....

أسئلة كثيرة كانت تطرحها بصوت مرتفع، وهو يتأمل في محياها الذي غشته سحابة حزن ظهرت فجأة بعد ما تذكرت حدة، وهي تتأبط يد صاحب النظارة، وهما يتجهان إلى الدشرة التي تربت فيها سيرا على الأقدام...

النهاية